

أنيس فهد

التايخ أنياب و أنلاف

دار الشروق



فِي هَذَا الْكِتَابِ

صفحة

| | |
|-----|---|
| ٥ | هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمان |
| ١٥ | كالحوانات يموتون كما يولدون في الظلام |
| ٢٦ | علمته وتعلمنا هذه الحيوانات |
| ٣٩ | وراء جنكيز خان ربع مليون حصان |
| ٤٩ | خنازير كولبوس ملأت العالم الجديد |
| ٥٦ | كل عصر له خرافات خاصة |
| ٦٥ | ذهب كل أرض تدوسها الأغنام |
| ٧٤ | أكاديمية لتعليم الانسان |
| ٨٥ | من يعرف الانسان كثيرا يحترم الحيوان أكثر |
| ٩٦ | هو يسقط والرئيس يطير |
| ١٠٥ | لو نام الأرنب قليلا لأدركته السلحفاة |
| ١١٦ | نظرية التطور رد لاعتبار الحيوان |
| ١٢٥ | خلقها الله بعناية لتتقضى علينا باتقان |
| ١٣٤ | هذه الكائنات التافهة التي حطمت الجيوش |
| ١٤٣ | لا وفاء عند الناس والكلاب نظرية |
| ١٥٢ | عندما أعلن موسولينى حرب الأبقار ضد الأغنام |
| ١٦٣ | شجرة واحدة تكفى هزها وأنت تعرف |
| ١٧٢ | قرود فى كل مكان |
| ١٩٣ | من قاوب الامهات خرجت موسيقى الخنافس |
| ٢٠٤ | القرد والسلسلة والقرداتى |
| ٢١٥ | لولا سلامك .. سبق كلامك |

لهذه الحيوانات آلة مال عليها الرغز!

هذا نوع آخر من التاريخ . انه مجموعة
عظم . اى ان الحيوانات التي كانت تعيش من
ملايين السنين قد ماتت في ظروف لا نعرفها .
وتركت بقاياها . وجاء العلم الحديث فجعل
العظام فحما . ثم درس الفحم وحلله وراح يعد
ثرائه ليعرف كم واحدة من هذه الذرات قد
ماتت . . وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر
هذه الحيوانات .

ويمكن أن يقال أن التاريخ : كومة تراب وجدها أحد العلماء في أحد
الكهوف . ففي الكهوف جاء الانسان القديم وأمسك غصن شجرة
وغمسه في الدم ثم رسم على الجدران صورة لهذه الحيوانات . .
وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الانسان
وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الانسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى
جديدة لكل ما حدث . . فالتاريخ عمل انشائى . . أو موضوع
انشاء . . ففيه الكثير من الكذب الجميل .

فالتاريخ هو نكان سمك .. أو حظيرة ابقار .. لانه تاريخ
الحيوان على هذه الأرض .. ولكن هذا التاريخ لهذه
الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا . لان الحيوانات قد
قاومت ملايين السنين . واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وأرجلها
وارتفعت أعناقها ونبت لها الريش والزعانف وقاومت قوى
الطبيعة . وقاومت الانسان .. واستطاعت ان تبقى أكثر تنوعا
وأكبر عددا وأطول عمرا .. وسوف تنتهى الحياة الانسانية على
هذه الأرض أو تنتقل الى كواكب أخرى . ولكن الحيوانات هي
التي سترث الأرض وما عليها .

فكل الحيوانات التي تعيش الآن وأضعف من الانسان كانت آلهة .
عندها الانسان وتلمس بركتها . وأقام لها المعابد وأشعل من أجلها
الحروب .

وفي الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس
العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الاخرى .
فكان هذه الحيوانات كانت فوق ، على العين والراس ، ثم أصبحت
تحت أحذية الانسان .. كانت آلهة فأصبحت عبيدا يسوقها ويذبحها .
او يجبسها ويتفرج عليها .. ان كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها
الزمن !

عندها الانسان .. ثم طاردها . وقتلها . ثم طاردها وصادها .
وحاول أن يستأنسها . وتحقق له ذلك ورباها ليذبحها ويأكلها . ثم
استخدم بعض هذه الحيوانات في جر العربات وجر عربات التساريخ
من قارة الى قارة ، ومن مرحلة الى مرحلة .. ففى السنة التى ولد
نبيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة . وكان ذلك عاما
حاسبا .. وسمى عام الفيل ..

والمقائد هانيبال زحف الى أوروبا وأثار فيها الرعب وانسحبت
إملمه كل قواتها لانه استخدم الفيل لأول مرة ..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس .. ويدخول الخيول مصر
تغير وجه التاريخ .. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها .

وحیوانات أخرى غيرها اشتركت في ملحمة الحياة والصبر عليها
والصمود من أجل ما هو أفضل لها ولصغارها .

وتاريخ الانسان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء .
أنها معارك الصداقة والعداوة . معارك السيادة .. وكان من
الطبيعي أن يسود الانسان بعقله . وقد سجل ذلك كله في أغانيه
وأعماله الفنية وفي أساطيره ..

والبداية قديمة جدا . فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف
مليون سنة . وكان شكل الحياة بسيطا بدائيا . عبارة عن خلية
حية . هذه الخلية ظهرت في الماء . والحياة على الأرض كلها خرجت
من الماء . القرآن الكريم يقول : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .
فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر . وأخذت تبرد في ملايين السنين .
وتتكون من حولها السحب . ومن هذه السحب التي بها كل عناصر
الحياة : المهدروجين والاكسجين وثنائي أكسيد الكربون ومن
ورائها ومن حولها الاشعة فوق البنفسجية التي تفيض من الشمس
خرجت الحياة . أو كان « الجو » أو « البيئة » أو « الحضارة » التي
لا بد أن تخرج منها الحياة . وخرجت وكان ذلك في الماء .

ومضت ملايين أخرى من السنين عندما انحسر الماء وأصبحت
هناك محيطات وشواطئ من الوحل . والوحل هو الماء والطين معا .
أو هو « الحل الوسط » بين البر والبحر ومضت ألوف السنين لتتعمد

الحياة ويكون لها شكل . وينقل هذه الكائنات من البحر الى البر .
وتعيش هنا وهناك . وما تزال في المحيطات كائنات غريبة عجيبة .
هذه الكائنات هي سلالات مسمرة من مئات ملايين السنين .

ونوجد بعض الاثار في شمال أمريكا وشمال أوروبا نشير الى هذا
النوع من الحياة التي ظهرت في البحر وتسلت الى البر ثم عادت
الى البحر ..

وفي الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية
بالعظام والانياب حتى لا تقنى . ونطورت الأشكال العظمية وأنيابها
وازدادت مرونة . بل أننا نجد بعض الكائنات البحرية أصبح لها فك
أكثر مرونة . وأقدر على أن يمسك وأن يعض . وهذه خطوة هائلة
في تطور الكائنات البحرية . . أو الأسماك . . ولا تزال بعض
الأسماك محبوسة في أقفاسها العظمية . وهذه الأقفاس سجل
تاريخي لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين .

وفي الوقت الذي ظهرت فيه الأسماك في البحر ، ظهرت الأعشاب
على الشواطئ . . والشجيرات والأشجار الكثيفة . . وانقلت
الأسماك من البحر الى الشاطئ . وليس هذا الانتقال قصيرا
كهذه العبارة . ولكنه طويل بملايين السنين . وأهم ما حدث : هو
أن هذه الحيوانات استطاعت أن تتنفس الهواء مباشرة — أى هواء
الجو وليس الموجود في الماء ا

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع في درجة حرارة الأرض .
فذهبت المساحات الهائلة من الجليد . وحدث طوفان . غرقت الأرض .
وزحف البحر على الأرض . فكان كل شيء بحرا . وغرقت معظم
الغابات وتراكم بعضها فوق بعض . ومضت ألوف السنين . وانحسر
الماء الساخن . أو الماء الذى يغلى . والذى جف . واحترق كل شيء

على الأرض . وتحولت الأشجار المحترقة الى فحم . . الى مناجم الفحم التي تستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مائتى عام . .

ولم تنعدم الحياة على الأرض . . بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب جديدة ، واتخذت لها اشكالا متنوعة . وتعلمت الحشرات أن تطير من الأرض الى الشجر . ومن الشجر الى الشجر . بعض الأسماك كانت تطير أيضا . ولا يزال بعضها يرتفع من الماء الى الشاطئ . أو من البحر الى النهر . أو من النهر الى البحر . . وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما . . أو هي أجنحة .

واجتهد العلماء فى تفسير ما حدث لهذه الحيوانات ، ذهابا وإيابا من البر الى البحر .

ففى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية . ففى أيام نابليون كانت عروش تقام وعروش تنهار . وحدود يحوها الانسان، وحدود جديدة يضيفها الانسان . . وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما غير هذا الشكل بعنف . . ومعنى ذلك أن تطور الحياة ، كالتطورات السياسية ، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات . فتاريخ الحياة ينتقل من عنف الى عنف .

وظهرت نظرية تقول ان الزواحف أطول عمرا . لان الزواحف تخرج من الماء الى البر . وتعود الى الماء . وان هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطاها فرصا أكبر للبقاء لأنها تضع بيضها على الشاطئ بعيدا عن الزواحف أو الأسماك المفترسة .

ويظل البيض على الشاطئ أو في الطين حتى تخرج الصغار من البيضة . وإذا كان البيض يحوى الصغار حتى تخرج ، فبعد خروجها تفتقر هذه الحيوانات الصغيرة الى الحماية مرة أخرى . من مشاكل التماسيح الآن في بحيرات أواسط أفريقيا أنها تضع بيضها على الشاطئ وعندما تخرج التماسيح الصغيرة من البيض تعالجها القردة بقتلها . . أو أن القردة تحطم البيض قبل أن يفقس . . ولذلك فالقردة خطر على هذه التماسيح !

وظهرت حيوانات ضخمة . هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة . ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا . فضخامة حجمها جعلتها أثقل حركة . وجعلتها أقل مرونة . وجعلتها إذا وقعت لا تقوم . وإذا قامت تنحسر بين الأشجار أو بين الجبال . وتظل كذلك حتى تموت . . فالعلم الحديث كشف لنا عن عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها أحد الوديان حتى ماتت . . مع أن أصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وأن يصعد الجبل ومنه الى الوادى أو الكهف يستأنف حياته من جديد . فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات . . فالكبير عاجز عن الشيء الصغير الذى ينقذه من الموت أو من الفناء ! وقد منيت هذه الكائنات الكبيرة ، لأنها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك . الفيل أكبر وأقوى . ولكنه أقل حركة . ولذلك كان « مجاله الحيوى » ضيقا . . أى المساحة التى يستطيع أن يتحرك فيها أضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فانقرضت فيلة كثيرة جدا ، وبقيت نمور أكثر . . فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشاكل والإفلات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالتضاء عليها — أنظر الى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تسأل كيف هزمتك أو كيف تهزتها ؟ مع فارق واحد : أن لديك عقلا ، ولدى

الحيوانات مخالب وأنياب . وأنها بأنيابها وأظلالها وأظافرهما نقشت تاريخها على أنقاضها وأنقاضنا . وبقيت وبقينا ولكننا أتحدرو وأفضل !

ولابد من لفت نظر هنا والان وبسرعة :

حتى لا نتصور أن الحياة أخرجت نفسها من الماء الى الأرض ، وزحف وطارت وقامت وتقاومت من تلقاء نفسها ، يجب الان نسي أن هناك « ارادة عاقلة » .. أن هناك « حكمة واعية » أو « عقلا كونيا » يعنى : الله ..

فنحن لا نقول مثلا ان فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب الطوب .. أو مجموعة من الألواح الزجاجية أو الخشبية .. مع أن هذا الفندق مجموعة قوالب وألواح وأسلاك . ولكن الفندق ليس كومة من المواد المختلفة . وانما هو شكل هندسى معمارى . هذا الشكل هو مجموعة ثوابين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا والاقتصاد والسياسة أيضا . انه صورة عقلية . صورة حكيمة . أى أن هناك عقلا أو أكثر من عقل جعل الطوب غربا والألواح نوافذ والأسلاك كهرباء وتليفونات وتلفونات .. ثم هناك قواعد وقوانين تربط بين الموظفين والزبائن .. والذى يحدث فى فندق حدث فى الالف الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا الى كائنات حية .. الى كائنات متطورة .. الى زحف عنيف نحو الحياة والبقاء رغم كل الظروف الطبيعية والانسانية المضادة ..

هناك — اذن — حكمة الحياة .. التى هى ارادة هذا الكون ..

ارادة الله . التى لا نعرف منها الا القليل . لان وسائل المعرفة صغيرة فوسيلتنا هى العقل . والعقل ما يزال عاجزا عن الكثير جدا (الف مرة جدا) مما فى هذا الكون .. مما فى هذه الأرض .. أو مما فى هذا الجسم الانسانى أو الحيوانى .. أو فى هذه الخلية الحية فى حيوان أو انسان أو نبات ! — انتهى لغت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جدرانها . الحيوانات تجرى . بعض هذه الحيوانات تنزف دما . اذن لقد صورها الانسان وهو يطاردها . لانه أقوى منها . وهو يصورها دامية استعراضا لقوته . فالدم اذا تزف يدل على انه قتلها . وانه لا يخافها . وانما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة و ألف مرة . ونحن لا نعرف بالضبط أن كان الانسان قد استأنس الحيوانات أولا ، ثم أكلها، أو انه اكلها قبل أن يستأنسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم انسان عليها . وحكمه عليها أنه حبسها وأذلها أو ذللها حتى أصبحت ذليلة له .. مثل كلبه تماما . والانسان كان يستخدم الكلب فى الصيد . ومعنى هذا انه استأنس الكلب ثم أطلقه على الحيوانات . فالكلب هو أول حيوان استأنسه الانسان . وعندما عرف الانسان كيف يستأنس هذه الحيوانات ، عرف أيضا أن يبنى الأسوار لتحمى الحيوانات ورائها . وكانت الأسوار من الأشجار ثم من الاحجار وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات .. ولا بد أن تلتف الحبال حول أرجل أو أعناق الحيوانات .

ولا يمكن أن تلتف الحبال دون أن يعرف الانسان كيف يصنع من الحبل « عقدة » . وعندما اهتدى الانسان الى « العقدة » كان قد

اكتشف شيئا عظيما جدا . فهذه العقدة كانت رابطة للخيط والانسجة والحبال . وقد تبدو العقدة عملا تائها . وهى بالفعل كذلك الآن . ولكن من مئات الألوف من السنين كانت اكتشافا لا يقل عن اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الغضاء !

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل أن الهنود الحمر كانوا يحبسون الخنازير دون أن يعرفوا انها طعام يمكنهم أن يعيشوا عليه . . كل انسان كان « يقتنى » بعض الحيوانات لا لانها طعام ، ولكن لانها جميلة الشكل فقط . أى أن الانسان كان يصيد الغزال والماعز والحسان لان لها شكلا جميلا . ومعنى ذلك أن الانسان كان فنانا محبا للجمال . وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله ، وأن لديه ما يتفرج عليه . . والانسان لا يستطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية الا عن طريق القوة . . قوة الصيد وقدرته على حماية ما يصيده . . فاحتفاظه بهذه الحيوانات دليل على اقتداره ودليل على ذوقه .

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب برويل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف . هذه النقوش هى القوة والجمال . فالحيوانات منطلقة بسرعة هائلة . والانسان قد سجل هذه الحركة . فهو اقتناها وراقب حركتها . وتمتع بذلك . ثم أنتقل من مجرد الاعجاب الى تسجيل ذلك . وجاءت ابنة هذا العالم ، وبالصدفة ، فدخلت أحد الكهوف وراحت تصرخ بالاسبانية : توروس . . توروس . . أى ثيران . ولم يكن الذى رآته ثيرانا فقط وانما كانت هناك خيول أيضا . ألوانها حية قوية جميلة . وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا ومفرنسا من عشرين ألف سنة .

وبعد ١٦ سنة عثر العلماء فى أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى نفس الوقت .

ولابد أن فكرة « رأس المال » قد ظهرت في هذا الوقت . لأن كلمة « رأس » هذه قد جاءت من رؤوس الغزلان والأبقار والخيول . فالذي يملك عددا كبيرا منها هو الأغنى وهو الأقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها واطعامها والتباهى بها . فهذه الحيوانات ثروة وقوة . ولا يزال رأس المال قوة . ولا تزال بعض القبائل البدائية ترى في كثرة الحيوانات مصدرا للقوة والسلطة . ولا يزال « المهر » هو عددا من الأغنام أو الأبقار . ان تقريبا منها هو استعراض واضح بارز متحرك للثروة الأب وأهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة ..

وبعد ذلك عرف الانسان أن الحيوانات ليست الا طعاما مدخرا .. طعاما يمشى على أربع .. والحيوان ليس الا حارسا للحمة حتى يجيء الانسان فيقرر أن يذبحه ليأكله أو يذبحه ليبيع لحمة . أو يبيعه لغيره من الناس ..

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية وفيها الكثير من الاشارات والتلميحات الى الانسان نفسه كما سنرى .

وإذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا ، أى من أجل الطعام والبقاء بعد ذلك : فان الانسان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان أو الانسان الآخر لأسباب أخرى غير الجوع . وقد حاول الانسان ان يقتنع نفسه بالعدول عن القتل . ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد — مع أن حيوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل !



كالحوانات يموتون كما يولدون في الظلام!

الانسان حاول ان يفسر كل شىء حوله تفسيراً انسانياً . فهو ينظر الى سلوك الحيوانات كما ينظر الى سلوكه هو . فالحيوانات تخاف وتفضب . وتميش حياة اجتماعية ولكل جماعة زعيم . وزعيم القطيع هو الذى يقودها يمينا وشمالا ..

واذا مات رأس القطيع ارتبكت الجماعة حتى تجد لها راساً جديداً . والانسان قتل الحيوانات ليأكلها او خوفاً منها . ولذلك خاف الانسان من هذه الحيوانات ان تنتقم من الانسان .

وهذا الخوف من الانتقام هو الذى جعله يكف عن قتلها بالالوف . فالخوف من الانتقام يمكن أن يكون بداية ظهور فكرة الضمير عند الانسان . فالضمير يقول له : لا تفعل كذا حتى لا تصاب بكذا .

ولذلك وجدنا الانسان من مئات الالوف من السنين يعلن أن

بعض الحيوانات يجب ألا يمسه بسوء .. أو لا يمسه . فهي شيء ممنوع لمسه . فاللمس بمناسبة . ثم أن الانسان اتخذ من بعض الحيوانات رمزا له . أو علامة مقدسة . أو شيئا مقدسا ينلبس عنده البركة والوقاية من الحيوانات الاخرى ومن احواله من البشر .

وكثيرا ما أصيب الانسان بكل كوارث الدنيا ، ولكنه رغم ذلك لم يفكر بهذه الحيوانات المقدسة . تماما كالجندي الذي يحارب تحت العلم . ورغم ما أصابه من هزيمة فانه لا يمزق العلم . وانما يظل ممسكا به ايمانا منه بأن العلم هو شرفه وهو كرامته .. وانه لا بد أن ينصر مرة أخرى !

وظهرت عند الانسان فكرة أخرى تقول : انه بعد أن يموت فسوف يتحول الى حيوان .. أو ينتقل من جلده الانساني الى جلود مئات الحيوانات . ويعتبر انتقاله الى اجسام الحيوانات الاخرى نوعا من الانتقام منه .. فحتى لا يكون حيوانا بعد وفاته ، فمن الأفضل الا يؤدي الحيوان بقتله أو ككله !

وربما كانت هذه الفكرة هي التي أدت فيما بعد الى أن يقال أن الانسان أصله حيوان .. وانه ينتقل من الحيوانية الى الانسانية ومنها الى الحيوانية مرة أخرى — وهذه هي « الدائرة الحيوانية » التي يتحرك فيها الانسان حيا وميتا .

وعند الفراعنة كانوا يرون أن الانسان يتحول الى حيوان بعد موته . وبعد أن يبقى حيوانا ثلاثة آلاف سنة يعود انسانا مرة أخرى . وبعد فترة قصيرة يعود من الانسانية الى الحيوانية من جديد .. والمصريون القدماء يرون أن كل شيء ثابت الا الانسان ..

فالفيل له مواعيد للفيضان ، والشمس تشرق وتغرب .. والقمر يصغر ويكبر .. كل ذلك في مواعيد ثابتة .. الا الانسان فان حياته متغيرة متبدلة .. وهذا التبدل أهم مظهره : أن ينتقل الانسان من جسم الانسان الى جسم الحيوان . وهذا الانتقال بالروح . فهذه أولى نظريات تناسخ الأرواح . وهذه النظرية قد انتشرت لإسباب غير واضحة لنا الآن ، في الشرق والغرب . وفي القرن السادس قبل الميلاد . ممثلا عند الفيلسوف اليوناني فيثاغورس ، وعند تلامذته من بعده . وعند الراهب الكبير بوذا في الهند والصين . ولكن بوذا كان حريصا أن يؤكد لتلامذته أن كلامه عن الحيوانات ليس الأرمز . وانه استخدم الحيوانات في نصائحه لتجسيد أفكاره وجعلها واضحة عند أقل الناس قدرة على الفهم . ولكن تلاميذه أخذوا نصائحه حرفيا ..

يقول بوذا .. ايها الرهبان هناك اناس كالحيوانات . او حيوانات يعيشون على الاعشاب . ايها الرهبان انها الخيول والاشنام والابقار والحمير وكل من يحب الطعام يرى أن الحياة هي الطعام ومن اجل الطعام هو هذه الحيوانات . واذا قدر له أن يعيش بعد الموت فانه سيكون حيوانا مرة أخرى .. ايها الرهبان هناك حيوانات تأكل الزبالة مثل الكلاب والكتاكيت والخنازير . ان الزبالة تنعشها وتهبها الحياة . ولو ماتت لتمت أن تعود الى الزبالة .. ايها الرهبان ان هناك اناسا هكذا . امهموني . ايها الرهبان : أن هناك حيوانات ولدت في الظلام وسوف تموت في الظلام . النور يوجعها ويضلها ويفزعها . ان هذه الكائنات هي البراغيث والصراصير والخفافيش واليوم .. ان هناك حيوانات ولدت في الماء وماتت فيه كالاسماك والسلاحف والتماسيح .. ان الاشرار، ايها الرهبان ، هم الذين بعد موتهم يفضلون الحياة الدنيا انهم .. مشدودون اليها . انهم عاجزون عن الانسلاخ عن الجسد عن المادة عن الشهوة .. انهم حيوانات « .

ولم يفهم تلامذته مئات السنين أن المقصود ليس الحيوان ، وإنما الحياة الحيوانية ..

وعند الاغريق وجدنا الالهة يعاقبون الانسان بأن يمسخوه حيوانا . أو أنهم يقومون بتهريب الانسان في صورة حيوان .. ومن السهل جدا أن يتحول الانسان الى حيوان ثم يعود الى انسانيته . والافريق عباقرة في حكاية هذه الخرافات . وفلسفتها وتعميقها . والشاعر أوفين في كتابه « التحولات أو مسخ الكائنات » من ترجمة د. ثروت عكاشة يقدم لنا روائع القصص والمغامرات وكنزا من المعاني الرائعة . ولكن الاغريق يرون أن الانسان هو اسمى الكائنات . بل أنهم يرون أن الانسان أعظم من الالهة وقادر على أن يتغلب عليهم بل أن الالهة تحقد على الانسان وبعض الالهة يتمنى ان يكون انسانا ولكنه لا يستطيع .. ولذلك فالاله اذا اراد ان يتفوق على الانسان كان من الضروري أن يمسخ نفسه انسانا .. لماذا فعل تغلب عليه الانسان . ولذلك فان الالهة تتكاتف معا ضد الانسان القادر على التمرد على كل الالهة !

والعالم الكبير فريزر يقول : لابد أن الخنزير كان حيوانا مقدسا عند اليهود من الوف السنين . فاليهود يحرمون أكل الخنزير ويحرمون أكل الجمل . ويرون أن الجمل مصدر لكثير من الامراض . ولكن السبب الحقيقي أن الخنزير لا يناسب الحياة التي يعيشها البدو في المناطق الحارة . فهو بطيء الحركة . وهو في حاجة الى كثير من الطعام ، وغير قادر على أن يتحمل الجوع مكرهوه ووجدوه عبئا ثقيلًا عليهم . وقد أثبت العلم الحديث أن لحم الخنزير هو مصدر متاعب المعدة والأمعاء . وتحريم لحمه صحى أيضا (وفي التوراة نجد وصفات علاجية عن طريق لحم الطيور . فعد وصف الانبياء

اليهود لحم الطيور علاجاً للمصابين بكثير من الأمراض الجلدية التي استسمى شفاؤها) .

شيء عجيب حقا أن يتقدم الفراعنة في كل مجالات المعرفة وان يسبقوا زمانهم ، وانهم لا يزالون اسبق شعوب العالم في الفلك والتحنيط ، ومع ذلك يقدسون الحيوانات !

والحيوانات التي يقدسونها كثيرة . وهذا يجعلنا نعتقد أن الفراعنة كانوا نباتيين . فهم يقدسون الابقار . والعجل آبيس (بالالف المحدودة والباء الثقيلة) قد عثر عليه العالم الاثري مارييت في سقارة . وهذا العجل موجود بطول وعرض الحضارة المصرية . وتمثيله واضحة وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه . وكانت تقام له الحفلات . وتقام له الجنازات اذا مات . وبعد وفاته مباشرة ينطلق الكهنة بين قطعان الماشية يبحثون عن معبود له علامة خاصة في رأسه أو عنقه أو جسده — فاذا وجدوه أقاموا الحفلات وتوجوا المعبود الجديد . واستراح الناس لانهم عثروا على رب لهم ، أو حارس لهم يحميهم من الحيوانات الأخرى . . ولذلك قدموا له طعاما خاصا وحرما من الاناث !

والفراعنة عبجوا الطائر « آبيس » — بالالف المكسورة والباء الخفيفة — وهذا الطائر شبيه بابو تردان ولكنه ليس هو . ويقال انه الطائر أبو منجل . . ويقال ان هذا الطائر قد انقرض ولم يعد احد يراه الا في أعالي النيل وفي المتحف المصري . انه بنى العنق والذيل متوسط الحجم .

والتمساح الذى وصفه هيرودوت بانته يملأ النيل . وان سكان العاصمة المصرية لا يعرفون طعم النوم بسبب بكاء التماسيح . وقد ظل العالم كله يتصور أن التمساح يملأ النيل حتى ان زعيما عالميا كبيرا سال الرئيس عبد الناصر ان كانت التماسيح ما تزال فى مياه النيل عند القاهرة ؟ !

ولم يكن حيوانا مقدسا عند كل المصريين . فالناس فى «اسوان» كانوا لا يكونون له احتراما كافيا . كانوا يأكلونه . وقد جاء فى إحدى الاغنيات المصرية القديمة أن واحدا يقول ما معناه : أقوم من النوم أقول يارب عدلها ، بلد حبيبي قصاد عينى ومش قادر أعدى لها . . وكان المصرى القديم يقول : بلد حبيبتى أمام عينى ولكن لا أستطيع أن أذهب الى حبيبتى . ان التماسيح فى المساء ولكن حبى جعل التماسيح ضفادع . . ثم جعل الضفادع فقائيع فى الماء . ولا بد أن أذهب الى حبيبتى » .

وكان المصرى القديم أشجع واصنق وأكثر استعدادا للتضحية . أما المصرى الجديد فهو قد افتعل صعوبة العبور الى حبيبتة ليشكو . فهو قادر على أن يذهب الى حبيبتة — ان كانت حبيبتة — فلا مشاكل فى المواصلات ولا تماسيح فى النيل . .

وفى « كتاب الموتى » الفرعونى اجد كلاما كثيرا عن « القط » الذى يمزق الامعاء تحت الاشجار المقدسة . ومن الغريب اننا لا نجد رسوما كثيرة للقط فى المصاطب القديمة . وربما كان أول ذكر للقط قد جاء قبل الميلاد بعشرين ترنا عندما عرفنا أن زوجة أحد رجال بلاط الملك منحوتب الاول اسمها « بوسى » . وان هذا القط جاء الى

مصر من الغرب ومن الجنوب . وهناك رسومات كاريكاتورية تبين الفنان المصرى وهو يتسلى أو هو يحاول أن يجد الموعظة الاخلاقية . فهناك صور لجثث من الفئران تهاجم قطا محاصرا فى قلعة . وهناك فأر عملاق امام قط مربوط بالحبال !

أما الكلب فهو من اخلص الحيوانات للانسان ، ولذلك استحق منه عظيم الاحتقار . وقد جاء خطاب بعث به موظف مصرى قديم يعيش على اطراف الوادى : انه لا يكاد يفتح باب بيته حتى يتقدم له ٢٠٠ قط و ٣٠٠ كلب متوحش و ١٠٠ ذئب . كلها تقف امام بابه ، فلا هو قادر على أن يخرج ولا هو قادر على أن يربى ماشيته ولا على أن يأكل .. أما النوم فهذه مشكلة المشاكل :

والحمار امرئقى الأصل . وهو لا يزال فى مصر كما كان من الآلاف السنين . والحمار كالكلب استحق احتقار الانسان ايضا . وأول مرة رأينا فيها رسما لحمار كان هكذا : حماران احدهما يمشى وراء الآخر وامام الاثنين جحش صغير . وقد رأينا كرسيا على ظهر الحمار الاول . ولم يشأ الرسام أن يبين لنا ما الذى يحمله الحمار الآخر .. ولكن لابد انه يحمل شيئا مماثلا .

ويقال ان المصريين وصفوا أحد ملوك فارس بأنه : ملك حمار . فما كان من الملك الفارسى ارتكسركس الثالث الا أن أقام احتفالا للعجل أبيس ، ووضع حمارا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا ! !

ويقال ان المصريين القدماء كادوا يحرقون مدينة الاسكندرية ذات

الطابع الاغريقي والتي تقام فيها تماثيل ابوليس وامروديت ، لأن احد الرومان قد قتل قطا !

اما الحصان فالمصريون قد عرفوه أيام الاسرة الثامنة عشرة . ويقال ان الحصان قد أتى به الهكسوس — وهم ملوك الرعاة . ولكن ليست هذه حقيقة مؤكدة . فمن المعروف أن الحصان قد استخدمه البابليون قبل ذلك بوقت طويل . وعندما دخل الهكسوس الى مصر ، كان الحصان قد سبقتهم اليها . ولا يزال الحصان يحتفظ بالاسم العربى القديم : سوسيم — اى خيول . والعربات اسمها : مركبوت .

اما الجمل فلم يدخل مصر الا فى عهد الرومان . .

والمصريون قد عرفوا الخيول التى تجر العربات قبل أن يعرفوا ركوب الخيول نفسها . وفى متحف اللوفر لوحة مشهورة اسمها لوحة النسور . ففى هذه اللوحة بعض النسور تحوم حول جثث القتلى بينما نجد احد ملوك سومر يركب عربة يجرها حصان . وكان ذلك قبل الميلاد بعشرين قرنا اى على أيام هامورابى . .

والخيول حيوانات مفضلة عند الاغريق . فهم يرون أن الحصان: حيوان نبيل جميل . وان الحصان لا بد ان يكون الآلهة قد صنعوه بأيديهم مباشرة . اى انهم لم يكلفوا احدا من صغار الآلهة بصنعه . . وكان الاغريق يفضلون الحصان لأن فيه تهردا اى نزوعا الى الحرية . فهو جميل نبيل حر . وكلما كان الحصان شرسا ، كان ذلك مجالا وتحديا للانسان ان يستأنسه فاذا فعل فهو بطل . الاسكندر

الكبير مثلا كان له حصانه المشهور بوسيفالس . ولم يكن أحد يقدر على ركوبه . ولكن الاسكندر استطاع عندما اتجه بحصانه ناحية الشمس . والشمس هي التي جعلت الحصان اقل انطلاقا . ولم يكن هناك شيء أزعج عند الاسكندر من هذا الحيوان الجميل . فلما مات حصانه اقام له المدن باسمه . واقام مدينة في نفس المكان الذي دفن فيه رمزا للوفاء . فقد حمله هذا الحصان حتى الهند !

واتخذ الشعراء والمفانئون الكثير من الحيوانات مادة لامعالمهم الفنية . فهم يختارون للحيوانات ادوارا في الحياة الاجتماعية والسياسية للانسان . ويجعلون للحيوانات حياة تنقذ حياة الانسان . والمؤلف المسرحى العظيم اريستوثانيس له مسرحيات : الفربان والضفادع والطيور . . وقد استخدم هذه الحيوانات للسخرية من الانسان . وقد فعل ذلك كثيرون من الابداء في كل العصور .

والكاتب اليونانى سيمونيدس عندما يتحدث عن أصل المرأة يقول ان هناك اربعة انواع من النساء : نوع جميل نبيل انحدر من الخيول . والثانى هو الذى لا يكف عن العمل ، ولا بد انه انحدر من النحل . والنوع الثالث هو الذى يدفن نفسه فى الانجاب وهو الذى انحدر من بذور القمح . والنوع الرابع القذر الدنىء ولا بد ان يكون قد انحدر من كلبة — ولا تزال كلمة « كلبة » فى اللغة الانجليزية اخط انواع الشتائم .

وهناك الفنان اليونانى الشهير ايسوب . كان عبدا واطلق سراحه . وظل يرتقى حتى أصبح سفيرا . وقد روى قصص الحيوانات ونوادرها وهو لا يرفع عينه عن الاتسان وسفالاته وانحلاله الخلقى .

ويقال ان ايسوب هذا قد هاجم رجال الدين . ودبر له رجال الدين
مكيدة . فعندما زار معبد الفن أفلح رجال الدين ان يضعوا كوبا
من الذهب في ملابسه . ثم ضبطوه وحوكم . وتقرر اعدامه قنفا من
احدى الصخور ، فمات فريقا !

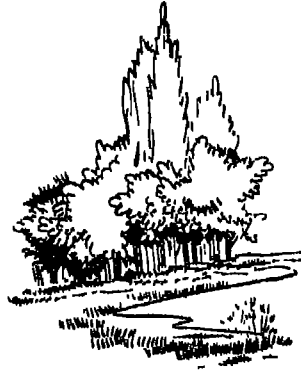
— وظل الانسان الالف السنين ينظر الى الحيوانات على انها كائنات
ناقصة التكوين ترى ولا تعرف كيف تعبر . أو اذا عبرت كان ذلك
في صمت . وراح الانسان يفسر سلوك هذه الحيوانات كما يفسر
سلوكه هو . ولكن رجلا عبقريا فذا اسمه أرسطو هو الذى أرسى
قواعد علوم باكملها بعقله الجبار . فهو بدأ ينظر الى الحيوانات
ويلاحظ سلوكها . ويقارن بين بعضها البعض . . فهو الذى ادرك
أن حيوانات لها دم وحيوانات لا دم لها . . حيوانات لها فقرات
وحيوانات بلا فقرات . . حيوانات تلد وحيوانات تبيض . . وهو
أول من اشار الى أن هناك علاقة بين بيض الحياجة وبين الديك .
وهذا يكفيه جدا أن يقول ذلك منذ ٢٥ قرنا . وقد احصى أرسطو في
كتابه « التاريخ الطبيعى » حوالى ٥٠٠ حيوان .

ويقال أن الاسكندر الاكبر هو الذى كان يبعث اليه بالحيوانات
والنباتات العجيبة من كل مكان يذهب اليه . ولكن هذه الحيوانات
مهما بلغ عددها لم تكن سببا كافيا لان يهتدى أرسطو الى هذه الحقائق
الحيوية . لقد أخطأ أرسطو كثيرا فى الاستنتاج . ولكن هذه اخطاء
تعتبر تافهة اذا تورنت باكتشافاته العظيمة فى علوم الحياة ووظائف
الاعضاء . لقد أخطأ فى عدد الاسنان وعدد الضلوع وعدد الفقرات
. . ولكن اشاراته الى الحياة فى بطن الام ، هى الخطوات الاولى
الباهرة فى العلم الذى سوف يظهر بعد ذلك باسم « علم الاجنة » .

وعندما سئل ارسطو في احدى المرات : ما الذى تفعله بالضبط
مع هذه الحيوانات والنباتات ؟

قال : لا شيء . اننى فقط اعلمها كيف تنطق باللغة اليونانية لعلى
افهم شيئا مما تقول . ولكنها مع ذلك لا تقول كثيرا !

سوف تقول اكثر فيما بعد !



علمته • تعلمنا ! هذه الحيوانات !

ثلاث مراحل مرت بها الانسانية ..

مرحلة : اكلنا الرغيف وترفقنا !

اي كل ما كان يجمع بيننا هو لقمة العيش .

ومرحلة : اتنى اعرف جانب الرغيف الذى

اضع عليه الزبدة .

فهناك اكثر من الرغيف .. ثم ان للرغيف

جانبيين ، وانا لا اكل الزبدة لآتني وجنتها . ولكنى

استطعم الزبدة واختار لها المكان المناسب .

ثم ان عندى متسعا من الوقت !

ثم مرحلة : كل ما اطلبه من هذه الدنيا هو الرغيف والفرغشة !

اي اكل رغيفى وابسط نفسى بالضحك واللعب والحب . وبعد

ذلك لا شىء . ويجب الا يكون هناك اى شىء آخر .

الأديب الرومانى القديم الساخر جوفينال قال : ما الذى يريده هؤلاء .. العمال .. لا شيء الا الرغيف والذهاب الى السيرك !

ولم يكن جوفينال يحترم العمال وانما يحترهم . فهو يرى أن الذى يعمل بيديه لا رأس له . فقط يأكل ويحب . ولا تقيم أخلاقية ولا دينية ولا مثل عليا ولا طموح !

ولكن جوفينال من ١٩ قرنا كان ظالما . هؤلاء العمال كانوا يطلبون الخبز ، لأنهم لو طلبوا شيئا آخر ما وجدوه ، لو طلبوا اللحم مثلا ، فمن أين يشترونه لو وجدوه فى الأسواق . فلم تكن الحيوانات متوافرة فى ذلك الوقت . لأن اللحوم ما تزال طعام القادرين . أما الفقراء فليس لهم الا الخبز والضحك على الأغنياء والسخرية من فقرهم — ولا تزال هذه مشكلة مئات الملايين فى العالم .

* * *

وما حدث فى الحرب العالمية الثانية دليل جدا على ذلك . ففى أثناء هذه الحرب ماذا جرى ؟ الجنود وحدهم هم الذين يجدون اللحم . وطبيعى ألا يبخل أحد عليهم بذلك . فقد ذهبوا يقدمون أرواحهم من أجل الآخرين .. ثم ان عمال مصانع الفخيرة ارتفعت أجورهم وأصبحوا قادرين على شراء الرفيف واللحم ومع ذلك فان أمريكا نفسها قد وزعت باللحوم بالبطاقات !

فكانت اللحوم نوعا من الترف . لأن الأرض لا تستطيع أن تطعم كل الحيوانات . والحيوانات لا تستطيع أن تشبع كل الناس . والأغنياء فى الدنيا يملأون موائدهم بلحوم الحيوانات

والطيور والأسماك ، والفقراء يلتقطون فئات الخبز . ومع بداية حرب الطبقات في التاريخ ، اتخذت الحرب شكل الصراع بين الخبز واللحم .

فى المدن الاغريقية القديمة ، كان لابد ان يجد الاغنياء وسيلة للحصول على اللحوم ، فزرعوا المراعى . . أو تركوا الحيوانات تأكل الأعشاب والغلل والأشجار ، ولم نجد فى الأدب الاغريقى القديم حديثا كثيرا عن الحيوانات ولحومها وطعامها وطعامهم .

ولكن عند الرومان نجد هذا التخصص فى الاستمتاع بالطعام ونقرأ نثرا وشعرا عن الخبز والخبلات واللحم .

(ومن المناسب هنا أن انبه الى أننا الآن نتعلق من ذيل بقرة أو جاموسة أو كلب ونمشى معه أو وراءه فى تاريخ الانسان . . فأنا وأنت معا نقرأ « بصمات » الحيوانات على عقل وقلب ومعدة ملايين الناس فى الالف السنين — انتهى التنبيه الذى أضأته حتى لا تنسى ولا أنسى أنا أيضا عن أى شىء نتكلم منذ أسبوعين وفى الأسابيع التالية .

وهذا يذكرنى بما قاله داروين عندما وجدوه يجمع الإصداف وجذور النباتات وجماجم الحيوانات فقال : لا شىء سوى أننى أفتز من شجرة الى شجرة وراء قرد فيه شبه كبير جدا بالانسان) ! . .

نعود الى صورة غريبة لرجل عظيم مات منذ أكثر من عشرين قرنا . هذا الرجل اسمه « لوكولوس » . هذا الاسم يتردد فى كتب كثيرة فى التاريخ . فى تاريخ المعارك كان قائدا عظيما .

ذهب بقواته الى أرمينيا وهزمها . وسحقها ومات من جيشه خمسة من الضباط وجرح مائة جندي . جيشه كله كان ١٨ الفاً . هذا الرجل عندما اتجه الى روما توقف عند إحدى المدن الأرمينية وبكى ، فقد أحالها جنوده تراباً !

هذا الرجل أيضاً كان يحب الكلام ، أو يحب الكلام أثناء الطعام . وهو أول من قال : ان الكلام يساعد على الهضم . وكان سابقاً لعصره بعشرين قرناً . فالأطباء اليوم يرون أن الجلوس الى المائدة يجب أن يطول قدر استطاعتك فلم تعرف الانسانية قرحة المعدة الا عندما عرفت السندوتش . اى عندما عرفت الأكل أثناء المشى وأثناء القراءة وأثناء العمل وأثناء الفرجة على المسرح وعلى السينما وعلى التلفزيون . . ولم تعرف الانسانية أوجاع المصراع الغليظ الا عندما عرفت الموائد الصغيرة فى المطاعم اذ يجلس الزبون وحده وقد أدار وجهه الى الحائط . وهو قد أدار وجهه الى الحائط لانه مشغول بهيمومه الخاصة . وهو — ككل أبناء المدن الكبرى — حريص على أن يكون مع همومه وحده . . وتتأكد له هذه الوحدة ، والقرحة أيضاً !

وهذا الرجل أيضاً عندما توفى حاول الناس أن يدفنوه فى احتفال ضخم . ولكنه قد سبقهم جميعاً وأوصى بأن يموت على مزاجه . فطلب الى أقاربه أن يملأوا قبره بالفتح وأن يتغطى به وبالورود!

وبعد وفاته جاء الصيادون وجمعوا من البحيرات التى أنشأها حول قصره ٢٥ ألف كيلو سمكا !

وإذا جاء ذكر الفلاسفة فلم يكن هذا الرجل مفكرا عظيما .
وانما كان عاشقا لكل صاحب فكر عظيم . وكان اذا أراد ان يتحدث مع أحد طلب اليه أن يزوره في بيته . فاذا جاء الى البيت راح الاثنان يأكلان ويشربان ومن المؤكد أنه قد شهد ميلاد الكثير من القضايا الفلسفية والاجتماعية والسياسية . وكان يضحك دائما ويقول : مساكين هؤلاء الفلاسفة . انهم لا يجدون ما يأكلون واذا وجدوه لا يستطعمونه . انهم أناس لديهم مشاكل في احشائهم — ولم يكن في هذا مبالغة . بل كان سابقا لعصره بمئات السنين!

لأسباب أخرى يهمننا هذا الرجل لوكولوس . فهو أول من ابتدع « البيسين » . . أى حفر الأرض وملاها بالماء . ثملقى في الماء الأسماك . وكلمة « بيسين » معناها في اللاتينية حوض السمك . وهو كان حريصا على ذلك لأنه يريد أن يأكل السمك طازجا . وكان يأتي بالأسماك من أماكن مختلفة من العالم . وهو أيضا أول من ابتدع « الكباريه » . . فهو قد صنع كهوفا تحت الأرض . . وأضاءها . . وجعل الراقصات والمغنيات يفرغفن الضيوف . . ثم أول من جعل الحيوانات تهر بين الصفوف ليتفرجوا عليها . وكان يأتي بالحيوانات والطيور النادرة من أفريقيا . وكانت الكهوف ملونة . وكانت عليها نقوش للالهة وأساطير الاغريق وأساطير الشعوب القديمة .

وهو أول من أتى بثمره الكريز من البحر الأسود . وقدمه لضيوفه .

. وهو أيضا أول من أتى بالحيوانات المفترسة وأطلقها في غابة لها أسوار . فكان أول من أقام حديقة حيوانات في أوروبا . وهذه

الفكرة مأخوذة عن الشرق ، فقد كان من عادة الملوك في الشرق ان يحتفظوا في حدائقهم الخاصة بالحيوانات النادرة . وعندما جاء الاسكندر الأكبر الى الشرق كان يضع الى جوار خيمة القيادة أسدا أسيرا – رمزا لقوته هو ، وأنه سوف يفعل نفس الشيء مع أعدائه !

وكل هذه العناية بالحيوانات والطيور والأسماك كان من أجل متعة الأغنياء والحكام . ولذلك كان الناس – ولا يزالون الى حد ما – يحتقرون صناعة الجزار . لأنها تتل للحيوان بينما الأغنياء يفضلون أن يبقى الحيوان حيا . فهم ليسوا في حاجة اليه . أو أن لديهم ما يكفيهم . ولذلك يجب أن يتفرجوا ويستمتعوا . فاكل اللحوم ليس مشكلة . وإنما هم انتقلوا من مشكلة الطعام الى الاستمتاع به والتفرج على الذي زاد على حاجتهم !

ومن الغريب أن الرومان كانوا يشربون البسان الحيوانات . ويصنعون منها الجبنة .. ولكنهم يحتقرون من يأكل الزبدة .. ولكن هذا المعنى تغير عندما اهتمت احدى الغائبات الى أن الزبدة اذا وضعت على الوجه أو على البشرة فانها تجعلها ناعمة لينة . فارتفع ثمن الزبدة ، واصبحت الزبدة هي صناعة كل البيوت ، ومطلب كل النساء .. ووجدنا في الأدب اللاتيني مثل هذه العبارات : انها زبدة .. انها تذييك كما لو كنت زبدة .. ان بشرتها لم تعرف الزبدة . انها هكذا خلقها الله !

وعرف الرومان أيضا « حظائر » الأبقار . فكانوا يجبسون الثور مع سبعين بقرة . ويشترطون أن يكون الثور ابن سنة أو ابن سنتين على الأكثر . أما الثيران التي تزيد أعمارها عن ذلك

فانهم « يعتمونها » ويطعمونها لتزداد سمته فيتكدس لحمها على موائد الأغنياء والقواد ..

* * *

يقول لوكولوس وهو يهذى على فراش الموت : يا خسارة لم تشأ الآلهة أن تجعل لى معدتين . لعلها أرادت الرفق بالفقراء وبالحيوانات وبالطيور وبالأسمك وبمعشوقاتي .. لو كانت الآلهة تجيب لى طلبا أخيرا فأعرف منها ما الذى سوف يأكله الناس فى بيتى وهم سيكون حزنا على فقد صديق ظريف كريم .. ثم ينسون هذا كله وهم يشربون النبيذ ويتفرجون على الراقصات .. أننى أعرف أن المائدة سوف ينقصها المرح وسوف ينقصها ذلك الرجل الضخم الذى كان زينة المجالس .. والذى ذاق كل شيء فى دنياه .. وحصل على كل ما يريد .. وحقق كل غاياته من الدنيا .. ولكن الآلهة بخلت عليه أن تكون له معدة أخرى .. أذفونى .. ضعوا سكر القصب فى فمى .. بل لا أريد قصب السكر وإنما أريد عسل النحل فأنا لست مريضا . وإنما ميت من شدة الشبع واللذة .. انتهيت « !

وكان من عادة الرومان أن يعالجوا مرضاهم بقصب السكر الذى جاءهم من الهند . أما عسل النحل فهو المصدر الوحيد للسكر عندهم .. أو للحلاوة . وكان هذا طعام الشعب . وقد عرف الفراعنة فوائد العسل قبل أن تعرفه كل شعوب العالم . فالفراعنة كانوا يضعون العسل على الدبامل وعلى الجروح . وكانوا يضعونه فى العين . وكانوا يضعونه على البشرة لجعلها ناعمة . وكانوا يحنطون به الموتى . ولم يكن الفراعنة يعرفون ما الذى سوف يكشفه العلم الحديث بعد ذلك من أن العسل قاتل لآى ميكروب . ولكن الفراعنة اهتموا الى ذلك من التجربة .

وربما كان شمشون الجبار أول من لاحظ أن أسدا ميتا متعفنا ومع ذلك جاء النحل وأقام خلية في هذا الجسد الكريه الرائحة . ومن هنا كانت الفزورة النى دوخ بها شمشون أبناء غزّة عندما قال : ما هو الحى فى الميت . وما هو الحلو فى المر ؟ ولم يعرف أحد كيف يجب على ذلك . ولكن دليلة راحت الى شمشون وأغرقتنه بالقبلات والأحضان . وعرفت نفسير هذا اللغز بعد أن تمصت شعره ، الذى هو مصدر ثونه ، قال لها : الحى فى الميت ، هو النحل فى جثمان الاسد الميت . . والحلو المر هو العسل فى جسمه المنعفن !

ومضت مئات السفين لنعرف أن عفونة جسم الاسد لا تنتقل الى طعم العسل . فالعسل قاتل لكل ميكروب !

وفى أمريكا نجد أن شركات كبرى تنقل النحل بالملايين من حديقة الى حديقة . ليقوم النحل بنلقيح الزهور . ثم تجمعه وتعيده الى مكانه . . وقد عرف الفراعنة ذلك من ألوف السفين . فقد كان الفراعنة يأتون بملايين النحل فى احدى السفن . ويقفون عند المدن ويركون النحل ينطلق الى الحقول والحدائق ، يجمع رحيق الزهور ويلقحها . . ثم ينقلونه فى النيل الى أماكن أخرى وهكذا !

وعرف الاغريق والرومان والفراعنة ضرورة ذبح الحيوانات تقربا للالهة . ولكن الرومان ذهبوا الى أبعد من ذلك . فكانوا لا يكتفون بتقديم النبيح ، وانها يجيء الرجل العراف ويفتح بطن

الحيوان وينظر الى الأمعاء . تم ينظر الى الكبد . ومن شكل الأمعاء يعرف مستقبل صاحب الذبيحة . ومن حجم الكبد ولونها وشكلها يعرف كم يكون عمر صاحب هذا القربان . وكانت قراءة الأمعاء والكبد ، نوعا من قراءة الكف . ومن الغريب أن الرومان تفوتوا في ذلك . بل ان أحد العرافين قال ليوليوس قيصر : اليوم أسوأ يوم في حياتك . اجلس في بيتك سوف تجيء الأنباء تحت قدميك . . فلا ترنع سيفك على أحد . . ولكن غدا سوف تسمع أسعد نبأ في حياتك ان شكل كبد الخنزير يؤكد ذلك . ولو كنت نبحت الخنزير قبل هذا الثور لجات أخبارك السعيدة أولا . وفي نفس اليوم تأمر بعض الرومان على أمز صديق ليوليوس قيصر نقتلوه وهو مخمور . وفي اليوم التالي أنجبت احدى عشيقانه طفلا ذكرا . وكان هو يتمنى ذلك !

ولا يزال بعض العرافين في أفريقيا يعرفون الطالع من مجرد النظر الى ريش الطيور وقد تراكم على الأرض . . أو عظام الطيور وقد ألقيت على الأرض فجاء ثعلب أو نئب وقلب فيها بأرجله ولم ينقها . . ولا يزال العرافون في هونج كونج يعرفون مستقبلك من قطعة اللحم النيئة الدامية اذا أنت قلبتها في طبق ثم هزرت الطبق . وتركتها . من مجرد النظر الى وضعها في الطبق وشكل الدم حولها يستطيع العراف ان يحدثك عن مستقبلك !

واهتدى الرومان الى ضرورة ان يشغلوا الشعب بشيء . وكان الشعب مشغولا بالخيول . وسباق الخيول وسباق العربات . واقام الرومان « مسارح » لسباق العربات . . واشهرها ملعب

كولسيوم في روما الذى يتسع لتسعين الف متفرج . وكانت العربات تجرها الخيول ويتفرج عليها الناس ويتعصبون لحصان معين . . أو لأسره معينه . . أو لسائق أو لصاحب خيول . وكانت تربية الخيول هواية وتجارة الأغنياء . وقد اقيمت للخيول اصطبلات واسعة وفخمة . واتى الأغنياء بمربين للخيول من آسيا .

وكان من المألوف أن يرتدى سائق العربة زيا أحمر أو أخضر أو أزرق . . وينقسم الناس الى مشجعى الأحمر أو الأخضر أو الأزرق واختفى اللون الأخضر . وأصبح الناس فريقين مقامرين ويتقاتلون . وتحول الاختلافات على الخيول الى اختلاف فى السياسة وفى الدين . وكانت هذه الخلافات حادة وأستهلكتهم وأبعدتهم عن السياسة . واستراح الأباطرة الرومان الى أن هذه المسابقات قد استغرقت الناس فمشجعوهم على ذلك .

ولكن حدث أن قامت مظاهرات عنيفة فى القسطنطينية بين مشجعى « الفانلة الحمراء » — النطق الصحيح « فانلة » لأنها كلمة انجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية — ومشجعى « الفانلة الزرقاء » . وقرر الإمبراطور جوستنيان فى يناير سنة ٥٣٢ أن يعصف بهذا العبث الرياضى السياسى . وجمع فريقا من الطرفين . وهددهم . ولكن الجماهير تظاهرت والتفت حول قصر الإمبراطور . وكاد يهرب من المدينة لولا أن زوجته الماكرة ثيودورا طلبت اليه أن يقول للجماهير شيئا . فقال اننى لا أعارض على الفريقين ولكننى أحب الفريق الأخضر الذى ليس له مشجعون !

وفرحت الجماهير بأنها أغلبيةة والامبراطور اقليةة . . وبان
الامبراطور أيضا يحب مسابقة الخيول !

ولكن ثيودورا ابنة رجل مشغول أيضا بتربية الخيول ومجنون
بمشاهدتها . . ولكن جوستينيان أنزل قواته وقتل ثلاثين الفا من
مشجعي هذه الرياضة في يوم واحد !

* * *

ولم يكتف الانسان الذى يريد أن يمزح اللذة بالالم ، والمتعة
بالقسوة من الفرجة على الخيول . وانما اثنى بالحيوانات المتوحشة
من افريقيا وأطلقها بعضها على بعض . والناس يصرخون من
الفرح ومن اللذة . اطلق الأسود على النهور . وأطلق الذئاب على
الكلاب . ثم أطلق كل هذه الحيوانات على المجرمين وعلى
المعارضين السياسيين . والناس يصرخون في متعة ، أو يستمتعون
في صراخ . ويطلبون المزيد . .

وأول مصارعة بين الانسان والحيوان شهدها روما كانت
في سنة ١٨٦ قبل الميلاد . وكان ذلك بعد غزو الرومان لسوريا .
ولكن هذه الرياضة الدموية قد أتى بها الرومان من العراق . فقد
كانت منتشرة قبل ذلك بمئات السنين .

والى جانب هذه اللذات العنيفة : ذبح الانسان للحيوان ، وذبح
الحيوان للانسان ، عاد الرومان الى رياضات هائلة . عادوا الى

عربات الخيول ولكنهم علقوا فيها الجمال . الامبراطور نمرود أول من فعل ذلك . ثم عادوا الى الفزلان وعلقوها في العربات . والنمور والأسود . ثم الفيلة .

والاسكندر الاكبر قد شاهد الفيلة في معاركه . وخصوصا في الهند . ولاحظ الاسكندر أن الفيلة شكلها مخيف . ولكنها تعوق الحركة . ولذلك أمر جنوده بأن يحتبوا في الفيلة ويطلقوا سهامهم ونبالهم على العدو . ثم اهتدى الاسكندر الى حيلة وذلك بأن يجعل الفيلة في مواجهة العدو ثم يكويها فتنتطلق هاتجة تمزق خطوط عدوه وتأخذ معها فيلة أعدائه أيضا . وعدل عن استخدام الفيلة في المعارك . واكتفى بأن جعلها تنقل الخيام . وكان له فيل مشهور أطلق عليه اسم « اجاكس » . ويقال أن هذا الفيل كان يرفع الاسكندر من الأرض ليحيى جنوده ولم يكن يفعل ذلك لأحد سواه ا

والقائد هانيبال عندما أهرب أوروبا بقواته كان يدفع أمامه خمسين فيلا . ولم يصل منها الى نهر الرون في فرنسا سوى ثلاثين فيلا ولما عبر بها جبال الالب لم يبق منها سوى ثمانية . . وعندما هبط جبال الالب . لم يبق سوى فيل واحد . . ولكن الرومان كانوا قد أستعدوا له أيضا بعدد من الفيلة . . ثم عدل الجميع عن استخدام الفيلة ونقلوها الى السيرك للفرجة عليها . .



نعود لآخر مرة الى القائد الاكول لوكولوس . فقد سئل في احدى ولائمه وهو يقلب عينيه ويديه بين الطعام والشراب والثمار ويقول : نحن حقيقة اولاد حيوانات . . فالحيوانات تأكل النباتات

ونحن ناكل الحيوانات .. ثم نحن نموت في الارض وعلينا تنمو
النباتات .. وسوف يجيء يوم ناكلنا الحيوانات حتى نفنى ، فتعيش
الحيوانات على النبات حتى تفنى فياكل بعضها البعض ولا يبقى أحد
في هذه الدنيا .. لماذا ؟ لان هناك معدة تاكل معدة اخرى ..
والارض هذه هي اكبر معدة عرفناها !

وكان هذا الرجل الذى اشتهر بانه صاحب اكبر معدة في
التاريخ ، سابقا لعصره ولكل الاطباء وعلماء الحيوان والنبات
والفلك ، لانه لم يرفع عينه ولا يده عن هذه الحيوانات ؟ !



وراء جنكيز خان بعج مليون حصاد !

لو جاء هؤلاء الوحوش سيرا على الاقدام لاستراحت منهم أوروبا مئات السنين - عبارة قالها مؤرخ اغريقى وهو يصف هجرة القبائل البدائية الآسيوية فى القرن الرابع الميلادى . فهدد القبائل قد تركت بلادها متجهة الى أوروبا غربا ، ومتجهة الى الجنوب . وليس معروفا بوضوح لماذا هاجرت هذه القبائل . ولكن المعروف انها قد ركبت الخيول فكانت حركاتها اسرع واخطر .

وقد وصف المؤرخ الاغريقى هؤلاء الآسيويين بأن اشكالهم دميمة . وشعورهم منكوشة . وانهم لا يأكلون الا اللحم النيء وانهم لا يغسلون ايديهم أو وجوههم . ويرون فى منظر الدم دليلا على النعمة وعلى الثراء . ويعيب عليهم أنهم يحبون الذهب وانهم من اجل الذهب يبيعون الابن والزوجة والحصان ، وربما كان هذا التقديس للذهب هو الشيء الوحيد الذى يربطهم ببقية الانسانية ! . .

وهى صورة كاريكاتورية . والحقيقة ان هذه القبائل الاسيويه راكبة الخيول ، عندها قدرات هائلة على القتال وعندها شجاعة . وعندها ترنمها الفنى والادبى وطقوسها الدينية . . وهؤلاء « الوحوش » أكثر حضارة من « البرابرة » الاوربيين فى ذلك الوقت .

وبسبب هذه الخيول التى لديهم أقاموا امبراطوريتهم بسرعة وجعلوها واسعة أما هذه الخيول التى ركبوها وأقاموا عليها قوتهم وعروشهم فهى متوسطة الحجم . صغيرة الرأس طويلة الشعر ، وظهورها سريعة الانحدار . وسيقانها قصيرة . ولا تحتاج هذه الخيول الى ماء كثير اذا سارت فى الصحراء . وهؤلاء « الوحوش » الاسيويون ككل الرعاة يعيشون على اللبن والنباتات والثمار ولا يأكلون اللحم . فاللحم هو الخيول . والخيول توتهم فى القتال والهرب .

وفى ذلك الوقت سقطت الامبراطورية الرومانية القوية . لماذا ؟ يقال ان الخيول رُمست هذه الامبراطورية فسقطت . وهذه عبارة مبالغ فيها الى حد كبير . فسقوط الامبراطورية كان لاسباب كثيرة . ولكن هذه الخيول الزاحفة بمئات الالوف قد عجلت بانهيان الامبراطورية الرومانية . لان هذه « القوات المحولة » على اربع والمتقدمة من قلب آسيا هى التى هدمت الامبراطورية الرومانية . ولم يكن الرومان فى ذلك الوقت قادرين على مواجهة الزحف الاسيوى كما ان الرومان كانوا يجهلون او يتجاهلون قدرة الخيول ، والفرسان والفروسية . فالجيش الرومانى به فارس واحد لكل عشرين جنديا . . أو به حصان واحد أبيض يركبه القائد العام ! ولذلك فالجيوش الرومانية أبطأ فى الحركة وفى الهجوم وفى الانسحاب .

وقد وجدنا فى التاريخ ان الفرسان الجرمان يطلقون على أنفسهم كلمة « رينر » ومعناها : راكب . . فراكب الحصان هو الفارس . وكان الرومان بسمون راكب الحصان « اكوبس » — وهى كلمة

لاتينية معناها راكب . ولكن ليس كل من ركب الحصان فارسا .
ولذلك كان الاسيويون « فرسانا » وكان الاوريون « ركبا » فقط !

وفي أوروبا في ذلك الوقت كانوا يطلقون اسم الفارس على كل من
يركب الحصان أو يملكه . ولم يكن يملك الخيول إلا الاغنياء أو
النبلاء . وكان الرجل الحر هو الذى يركب الحصان . فهو يستمد
حربته من قدره حصانه على الحركة والجري والهرب . . ومن
التعبيرات الشائعة في ذلك الوقت : اركب حصانك . . أليس لك
حصان ؟ لو كان عندى حصان ما رضيت بهذه الحياة دقيقة واحدة !
ركب فلان أسرع خيوله وهرب . .

وجاءت القوات الاسيوية الراكبة وأسقطت الإمبراطورية
الرومانية الوثافة أو الماشية أو الجالسة !

وظل الحصان مصدر القوة العسكرية في أوروبا ألف عام بعد ذلك .
وكان سلاح الفرسان هو السلاح الأفضل . وكان سلاح ابناء
الذوات والنبلاء . فالجندى يرتدى بدلة المدرعة ويركب حصانه . .
والبدلة غالبية والحصان أعلى والموت بعيد عن هذا الفارس .
ولا يستطيع أحد أن يحمى نفسه هكذا إلا اذا كان غنيا . فالمشاة
مقراء والفرسان أغنياء !

ولم تكن الخيول الاوربية الا حيوانات غليظة ضخمة .
خطواتها ثقيلة . وأشكالها دميمة . . ولكن أوروبا عرفت بعد ذلك
أن تستورد هذه الكائنات الجميلة النبيلة من شمال افريقيا ومن
شبه الجزيرة العربية . ومن منطقة نجد . وظهرت الخيول
العربية بأجسامها الممدودة الانسيابية ورشاققتها وروعتهما . .
ولم يعرف الاوريون هذه الكائنات الرائعة إلا بعد أن اتصلوا
بالعرب . . وقرأوا عن عسق العرب لهذه الخيول . . بل أن أمير

الشعراء الانجليز روبرت جريفز يؤمن بأن الادب العربى لم يعرف معنى « الفروسية » الا من العرب . فالعرب هم أول من اهتدى الى أن الفارس ليس من يركب الحصان . وانما هو الذى له شجاعة الحصان ونبله وكرمه واحترامه للعواطف الانسانية . والفارس هو الرجل الشهم . أو العاشق الذى يضحى بحياته من أجل محبوبته . وهو الذى يرى أن الحياة هى الحب . والحب هو الحياة . والحياة هى ان يموت الفارس من أجل المحبوبة . يكفى أن تراه يتعذب فتسقط على جثمانه دمعة واحدة . بل أن دمعة واحدة كثيرة . لأنه يرضى بأقل من ذلك .

ويقول روبرت جريفز ايضا : أن أوربا لم تعرف معنى الحب العذرى أو الحب العنيف أو الحب « الأنطاونى » الا من العرب . فعند العرب قبيلة اسمها قبيلة « بنى عذرة » . هذه القبيلة قد نذرت نفسها للحب الشريف . وهذه هى الفروسية .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان الشعراء المتجولين « الطروبادور » أى شـعراء الطرب — لم يتعلموا فن الصلـكـة النبيلة الا من الادب العربى . فالشاعر العربى لا يكتفى بأن يتعذب من أجل المحبوبة ، وانما يروح ينقل عذابه للآخرين . فيتجول من مكان الى مكان ويروى للناس كيف انه لم ير الا ثوب محبوبته .. طرف ثوبها .. وهو لا يفضحها وانما هو ينعنى بها ويقيم لها حفلات التكريم .. فهو محطة اذاعية .. هو فيلم .. هو اسطوانة تدور فى كل مكان . هؤلاء الشعراء كانوا فرسانا ، يركبون الخيول .. وفيهم أخلاق الخيول : شموخ وجمال وصمود واستعداد للتضحية !

وفى التاريخ الاسلامى نجد الرسول عليه السلام كان يركب الناقة وكان يركب الحصان . وكان — ككل العرب — يدعو الى

حب الخيل والى اقتنائها . وهو الذى قال : « الخيل معقود بناوصيها الخير الى يوم القيامة » . وكان يدعو ابناء المسلمين الى ركوب الخيل . . . وعندما أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تقول كتب السيرة انه ركب « البراق » وهو حيوان متوسط فى حجمه بين الحصان والحمار . . . وفى المكان الذى وقف فيه البراق أقام مهر مسجده فى القدس . ويقول اليهود ان هذا المسجد أقيم فوق حطام معبد سليمان . . .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وردت فيها كلمة « الخيل » . وهى تُرد بمناسبة الاستعداد للقتال وضرورة محاربة العدو . والقرآن الكريم يقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل نرهبون به عدو الله وعدوكم . » وفى القرآن الكريم سور تحمل اسماء الحيوانات والحشرات والخيل : البقرة والنحل والنمل والانعام . أما سورة « العاديات » فالمقصود بها « الخيل » والسورة نقول : «والعاديات ضبحا . فالجواريات قدحا . فالغيرات صبحا . فأنثرن به نقعا فوسطن به جمعا . » وهذه الآيات تصف الخيل فى حركتها واثارتها للتراب وسط القوات المعادية . والله فى هذه السورة يقسم بهذه المخلوقات الجميلة . وفى ذلك أقصى درجات التكريم . . .

والعربى يستمد نبلة وقوته من هذا الحيوان المتسق القوام . ويستمد أيضا كبريائه . وقد وصف العرب حاتم الطائى بأنه أكرم العرب لانه ذبح حصانه لاهد ضيوفه !

وعمر بن الخطاب عندما دخل القدس لم يشأ أن يركب حصانا وانما ركب ناقه وعلى هذه الناقه وضع طعامه من الماء والتمر والقمح . ودخل القدس حانى الرأس . ولم يركب حصانا بتبختر به كما يفعل الفرسان أو كما يفعل الغزاة المنتصرون !

والتاريخ يسجل للعرب انتصاراتهم الهائلة شرقا وغربا بقوات صغيرة وخيول محدودة . وقد حاول الفرس أن يصدوا العرب مستخدمين الخيول . ولكنهم فشلوا . فقد كانت عندهم الخيول، ولم تكن لديهم الفروسية — أى روح المشجاعة والاستعداد للموت فى سبيل الله ! ودخل العرب اسبانيا بجيش متواضع : ٣٠٠ فارس عربى وثلاثة آلاف من قوات البربر !

وبعد ذلك بخمسة ترون جساء جيش من الشرق محمولا على الخيول ومزق اوريا كلها ، وداس مقدساتها وفتح عيون العرب على أن هناك حضارة أخرى .. أو شعوبا أخرى تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الحضارة الاوربية المريضة المتداعية . كان ذلك جيش جنكيز خان .

وقد وصف الرحالة الايطالى ماركو بولو جيش جنكيز خان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بأنه كان يتحرك فوق ربع مليون حصان !

وأصبح من المألوف فى أوروبا فى ذلك الوقت أن الرجل النبيل هو الذى يملك قطعة من الارض وحصانا . أو يملك حصانا دون أن يملك أرضا أو يملك الحصان والبدلة المدرعة دون أن يكون جنديا فى أى جيش . وإنما يكفى أن يكون هذا « عاليا » فوق حصان ، و « منيعا » وراء بدلة من حديد .. وهو بكل مقاييس العصر يعتبر رجلا محظوظا !

وعرفت أوروبا تربية الخيول . واستخراج السلالات الجيدة منها . لان الخيول التى هاجرت الى أوروبا من الشمال فى العصور الجليدية كانت صغيرة هزيلة . أو قبيحة التكوين . وقد أحس الاوربيون بذلك اثناء الحروب الصليبية . لم تكن لديهم هذه الخيول

العربية الرائعة . وحتى عندما انسحب الصليبيون من الشرق كانوا يحملون امتعتهم على ظهور الأبقار والماعز والخنازير !

والخيول حتى ذلك الوقت كانت مظهرا من مظاهر الثراء والقوة . ولكن أوروبا لم تعرف « الفروسية » أو رياضة ركوب الخيول . وإذا حدث أن أراد بعض الفرسان أن يتريض جاءت هذه الرياضة عنيفة دموية . فيلتقى الفرسان ويتحاربون . وتكون النهاية دموية مميتة . أن الملك هنرى الثانى ملك فرنسا قد سقط من فوق حصانه ميتا سنة ١٥٥٩ . ولم يكن ذلك فى الحرب وإنما كان فى معركة مع أحد الفرسان . ولم يكن ذلك الا على سبيل اللهو !

ولكن رجلا فرنسيا اسمه جيوفروا دى بروى هو أول من وضع لرياضة الخيل أو للفروسية قواعد واصولا وطلب من كل الفرسان أن يحترموها وكانت هذه القواعد تؤدى الى الإبقاء على حياة الفارس والحصان . وان تكون استعراضا للخفة والسرعة والمنورة دون دماء !

والتاريخ الذى كتبه الخيول فى حياة الانسان والشعوب كلها طويل جدا — انه يشبه تاريخ الدبابة والمدرمات والطائرات . فالخيول هى دبابات وطائرات الانسان من الالف السنين !

وإذا كان الانسان قد استخدم الخيول فى الرعى وفى الصيد ،فانه استعان أيضا بطائر غريب يساعده على ذلك . فالصياد كان يركب حصانه ويحمل على ذراعه طائرا هو « الصقر » ثم يطلق الصقر على الفريسة ويجرى وراءه . وبعد لحظات يكون الصقر قد أوقف له الفريسة . فالصقر ينطلق وينقض بسرعة على الطيور الأخرى أو على الأرانب أو على الغزلان . ويقف على رأسها ويرفرف بجناحيه

فيجعلها عاجزة عن الرؤية . او يضربها في رأسها او يفتق عينيها . .
حتى يجيء الصياد ويمسك الفريسة. ولا تزال هذه الصقور وسيلة
من وسائل الصيد في مناطق شبه الجزيرة العربية . فبدلا من ان
يطلق الصياد سهامه ونباله ورصاصه على الفريسة ، فانه يطلق
الصقر لكي يمسكها وهي حية دون ان يشوه مكانا واحدا من جسمها .

وفي العصور الوسطى كانوا يستخدمون الصقور لاصطياد
الخنازير البرية . ففي فرنسا ، وهي كبرى الدول الزراعية في اوروبا ،
قد أرهقتها هروب المائة عام حتى لم يبق لدى الناس ما يأكلونه من
الخضراوات والفواكه والحيوانات . وحتى أصبح من الضروري
ان يلتزم صاحب البيت أو صاحب القصر باطعام خدمه وحاشيته
والا فلن يجد احدا يعمل لديه . ففي سنة ١٤٣٣ صدر قانون يقول:
وللخادم ان يأكل اللحم مرتين في الاسبوع وان يشرب زجاجة نبيذ .
وفي أيام الصوم يجب ان يجد السمك .

أما الاغنياء فكانوا يضعون على موائدهم كل ما لا يجده الفقراء
من لحوم : الخنزير والبقر والاوز والبجع والشواء والسلوق وكانوا
يأكلون الطاووس أيضا (وقد فعل ذلك شاه ايران عندما أقام
مهرجانه التاريخي بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرنا على تأسيس
الملك كوروش للدولة الفارسية . .)

ولكن طائرا واحدا نجا من الموت : الصقر .

ويقال ان المؤرخ الاغريقي كتسياس وكان طبيبا خاصا للملك
الفارسي ارنكسركس في القرن الرابع قبل الميلاد ، هو اول من نقل
الصقر الى اوريا . واول من استخدمه في الصيد . ولكن هذه العادة
لم تنتشر في اوريا الا بعد أن هاجر الاسيويون الى اوريا . وعرف
الغرب أن الصقور يمكن استخدامها في صيد الذئب التي تهدد
قطعان الاغنام والابقار . .

وفي احدى لوحات لويس السادس عشر نجده واقفا وعلى ذراعه اليسرى وقف الصقر شامخا براسه .

كما أن الملك فريدريش الثانى ، لم يكتف بتربية هذه الصقور الصيادة ، وانما اصدر كتابا في تربية الصقور وتعليمها . كتابه اسمه « فن الصيد بالطيور » . وفي الكتاب يحدث القارىء عن اخلاقيات هذا الطائر . وكيف يأكل وكيف يشرب . وكيف يجب تجويعه قبل اطلاقه على الفريسة . ثم مكافاته بعد ذلك بأن يعطى القلب والكبد وعينى الفريسة . والذي يقرأ كتاب الامبراطور يشعر بأن تدريب الصقور الصيادة عمل شاق . ولكنه من انبل الاعمال فى ذلك الوقت .

والفراعنة أنفسهم كانوا يرمزون بالصقر — حورس — الى السماء . . او الى الفضاء الخارجى . ويرون أن هذا الصقر له عينان هما : الشمس والقمر . وكان هذا الطائر فى أعلى مراتب القداسة عندهم . .

وحيوان آخر رافق الانسان سنوات طويلة . او كان اول من صادقة ؟ الكلب . وكان الانسان يستخدم الكلب فى حراسة الاغنام ، ولم يكن الكلب حارسا لها تماما ، وانما كان يحميها من الذئاب والثعالب . وكان الكلب حيوانا محترقا رغم احساس الانسان بفائدته . وكان من عادة الاغنياء أن يضعوا كلابهم فى غرف الخدم .

ولكن فى العصور الوسطى ظهرت الكلاب فى قصور النبلاء والملوك . ثم ظهرت الكلاب فى لوحاتهم الفنية . وظهرت انواع نادرة من الكلاب . وكان الكلب يستهد « مكانته » هو ايضا من مكانة سيده . بل أن الفنان كان يعكس طبيعة السيد على طبيعة الكلب . فاذا كان السيد مثل « فيليب الطبيب » دوق يورجانيا ظهر الكلب هادئا جالسا عند قدمى سيده ، واذا كان السيد شريرا مثل «شارل

السيء » ملك مقاطعة نفاة الاسبانية ظهر الكلب شرسا يتضمم الطعام عند قدمى سيده ..

وظهرت حيوانات وطيور اخرى كثيرة فى اللوحات الفنية بل وفى النقوش القديمة . ففى احدى مقابر المملكة الوسطى الفرعونية نجد نقشاً به تسعة وعشرون نوعاً من الطيور . . وفى مقبرة الكاتب المصرى حور محب فى عهد نحتمس الرابع نجد نقوشاً لطيور كثيرة . . كما ظهرت الحيوانات المفترسة على دروع الجنود رمزا للقوة والمنعة . بل لا يزال « وحيد القرن » منقوشاً مع عظيم الاحترام على الاسلحة الملكية البريطانية . وكان القدماء يتصورون أن وحيد القرن حيوان نادر أو حيوان خرافي . فالمؤرخ الرومانى بلينى كان يعتقد وكذلك الفيلسوف الاغريقى ارسطو أن وحيد القرن لا وجود له . ولما نقلت التوراة من اللغة العبرية الى اللغة اليونانية ترجمت الكلمة العبرية « ريم » ومعناها : ابقار الى الكلمة اليونانية « مونوكيروس » ومعناها : وحيد القرن .

وقد استخدم القدماء اسم « وحيد القرن » للدلالة على العفة والعزوية وقوة الفضيلة . وذهب القدماء الى ابعد من ذلك فتصوروا ان قرن وحيد القرن هذا يحقق المعجزات . وان الذى يحتفظ به تحدث له البركات . . وان الذى يسحق القرن ويشربه مع النبيذ تكون له قوة حنسية هائلة .

عجيب امر الانسان : انه يبدأ بتقديس الحيوانات ثم تكليسها ثم القضاء عليه ، ثم الحزن عليه والعمل على انقاذه وتربيته والبحث عن شيء جديد يقدره تمهيدا للقضاء عليه . . وهذا ما فعله بنفسه ايضا !



خنازير كوليبوس ! عدت العالم الجديد .

مع اكتشاف أمريكا ظهرت حيوانات وطيور جديدة ، فالخنازير الثمانية التي حملها كوليبوس معه قد أصبحت الآن مئات الملايين في العالم الجديد ، ولم يكن اكتشاف أمريكا عملاً بارعاً بالصدفة ، ولكنه نتيجة لمحاولات ومغامرات استغرقت مئات السنين ..

ويجب ان نذكر دائما ان الصيادين هم الذين لمسوا كل شواطئ العالم الجديد . فالصيادون من أبناء الشمال هم الذين اكتشفوا « جرينلاند » أي الأرض الخضراء ولم تكن الأرض خضراء عندما اهتدى اليها « أريك الأحمر » وإنما كانت جرداء جليدية صحراوية مميتة . ولكنه اختار لها هذا الاسم ليستدرج الناس الى الحياة فيها . وكان هو وابنه اول من أقام فيها . وبعد ذلك تكاثر المهاجرون جيلا بعد جيل ..

يقول « أريك الأحمر » في مذكراته : كنت اطلب من ابني ان يقوم بدور الكلب و احيانا بدور الدب ، لنشعر نحن ان هناك كائنات أخرى ترانا أو تخافنا أو تعمل لنا اي حساب ! ..

ويقال ان « أريك الأحمر » هذا اسنطاع أن يصل في مغامرانه البحرية الى شواطئ أمريكا . والى جزيرة « رود » بالذات . ولكنه يوم اهدى الى هذا المكان النائي لم يكن يعرف بالضبط ، ما الذى يراه عن بعد ..

وبعد ذلك توالت مغامرات أبناء جنوه الايطالية ، والبحارة الاسبان والبرتغاليين . كلهم اتجهوا عبر المحيط الاطلسى . لماذا ؟ لأن لديهم معلومات ما ، بأن شيئا ما ، يوجد فى الناحية الأخرى .. ما هو هذا الشيء ؟ يقال : انها بلاد التوابل : بلاد الهند . أو بلاد الحرير : بلاد الصين .

واكتشفوا جزر الكنارى وجزر ماديرا وجزر الأزورس .. ومن الملاحظ أن كل الجزر التى اكتشفت قد حملت اما أسماء القديسين أو أسماء الطيور . فقد كانت الطيور بألوانها الزاهية الصارخة وأصواتها المغردة هى أهم ما رأى وما سمع الأوربيون . فجزر الكنارى نسبة لطائر الكناريا .. وجزر أزورس أيضا . فالكلمة البرتغالية « أسورث » معناها : الصقور . والجزيرة مليئة بالصقور .

وكانت هذه الطيور تستقبل سفن المغامرين من بعيد ، وتحلق حولها فى كبرياء . وقد فتن الأوربيون بالببغاء . وانتقل هذا الطائر الى أدبهم وشعرهم وأغانيهم وخرافاتهم أيضا .

وأول ما واجه الأوربيين المكتشفين أن هذه الجزيرة فقيرة . وأن أهلها بدائيون متخلفون تماما. ولذلك احتاج الأوربيون الى أن يأتوا معهم بالطعام من اللحوم . فنقلوا الحيوانات الاليفة الى هذه الجزر . ونشروها . وامتلات بها الدنيا الجديدة . وقد أدى وجود بعض هذه الحيوانات الى ظواهر غريبة لم تكن فى حسابهم .

فمتلا عندما نقلوا الأرناب الى جزيرة اسمها « الجزيرة المقدسة » تكاثرت بمئات الالوف في سنوات قليلة ، حتى أكلت ما في الجزيرة من أعشاب ، بل انها كانت تتسلق الأشجار وتأكل أوراقها الخضراء . .

يقول بعض المؤرخين : ان الذى ينظر الى الجزيرة بعينه من بعيد يجد سطحها يتحرك . . يعلو ويهبط ، كأن أمواج المحيط قد استقرت فوقها . فاذا اقترب منها أكثر وجد أن الذى يتحرك هو موجات من الأرناب !



نفس التجربة حدثت عندما اكتشفت استراليا . كانت الأرناب قد أكلت المزارع فأتوا لها بالقطط . فأكلت الأرناب وأصبحت القطط منوحشة . فأتوا لها بالكلاب . فتحولت الكلاب الى ذئب متوحشة ويقال انهم فى استراليا قضاوا على الكلاب التى قضت على القطط التى قضت على الأرناب ، فانتشرت الفئران بصورة شرسة . . وفى الهند عندهم مشكلة مماثلة . ففى الهند يحتاجون الى جلود الثعابين فيصيدونها . وكانت الثعابين تأكل الفئران التى تأكل محصول القمح والذرة . ولذلك أصبح ممنوعا صيد الأفاعى لأنها تقضى على الفئران ، وبذلك ينجو القمح والذرة ؟ .

والمستعمرون الأوروبيون الجدد لهذه الجزر أو لهذه الأراضى المكتشفة يحتاجون الى ضمان طعامهم . والى ضرورة معرفة الحيوانات والطيور الجديدة . وان كان فى الامكان ذبحها أو تصديرها الى أوروبا . . وبعد ذلك معرفة حدود الأرض الجديدة والبحث عما فيها من ثروات طبيعية .

وإذا كانت الأرانب هي أول المهاجرين الأوربيين الى العالم الجديد ، فقد جاءت بعد الأرانب الأبقار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن وكذلك البذور .

وكولمبوس عندما اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ كان يحمل في سفنه بعض اللحوم والأسماك الجافة . . ولكن رحلة كولمبوس الأولى كانت استطلاعية فقط وبعد ذلك جاءت رحلته الثانية الباهرة ويقول كولمبوس في مذكراته بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أى بعد ٣١ يوما من السفر من جزر الكنارى : ظللنا طول الليل نسمع اجنحة الطيور . ولا نعرف أين نحن بالضبط . ولكنى مؤمن بأن الأرض قريبة جدا «

وبعد ثلاثة أيام توقف كولمبوس عند جزيرة هي جنة الطيور . كل شيء فيها غريب عجيب . أشجارها وأرضها وثمارها . وأهم من ذلك كله عدد لا نهائى من البيغاوات . وقد حمل منها عددا كبيرا الى أوروبا . ووجد بالصدفة بعض الأحجار اللامعة على الشاطئ فظن أنها ذهب . ولم تكن كذلك . وأيقن أنه قد اهتدى الى الهند. وكولمبوس هو الذى أطلق خنازيره فى الدنيا الجديدة . . وهربت الخنازير الى الغابات واختفت منه . . وبعد مئات السنين أصبحت الوف الملايين . . طعاما سائفا للرجل الأوروبى والأمريكى . .

ومما حمله الأوربيون الى العالم الجديد : الخيول .

وكانوا يركبون الخيول ويمسكون السهام والنبال ويطلقون النار على الهنود الحمر . تخافوا أول الأمر . وبعد ذلك لم تعد هذه الخيول تخيفهم وكانوا يظنون أن الحصان وراكبه كائن واحد .

ولما تشجع الهنود الحمر وأطلقوا سهامهم على الأوربيين سقط منهم الكثيرون على الأرض . واندھش الهنود الحمر كيف أن هذا الحيوان — أى الحصان وراكبه — يمكن أن ينشطر نصفين بهذه السهولة !

(وعندما اكتشف كوك أيضا جزر هاواى كان يضع يديه فى جيب البنطلون فكان أهل هاواى يعجبون لذلك اذ كيف يخفى يديه فى بطنه ويخرجها . ولما راح يدخن السجائر ، أدھشهم كيف أن النار فى أحشائه ولا يموت . . ولما قتلوا رجاله البيض فزعوا لذلك . ولكنهم تشجعوا حتى قتلوا كوك نفسه) .

والشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا كروث تقول سنة ١٦٨٨ عن الأوربيين الذين غزوا بلادها بالحديد والنار : من هؤلاء الوحوش الذين جاءوا عبر المحيط يدوسون أرضى المقدسة ؟ ويذبحون أجدادى وينهشون لحمهم ، وينهبون ثرواتهم بلا سبب ؟ . . ان أجدادى متحضرين أما هؤلاء القادمون من وراء البحر فوحوش بربرية . . !

واهدى الانسان الى حيلة أخرى غير استخدام الخيول ، استعملوا الكلاب المدربة . وأخذوا يطلقونها على قبائل الإنكاس . وكانت الكلاب تمسك بهم وتعوقهم لتصيبهم نيران الاسبان . وعرف الإنكاس حيلة أخرى جديدة . كان الواحد منهم يتغطى بمواد مسمومة فإذا هجم عليه الكلب مات لتوه . أما لماذا لم يمت الإنكاس من السموم التى تنفذ الى ما تحت الجلد ، فذلك ما لم يعرفه أحد بعد .

ويصف لنا المؤرخون الاسبان كيف راوا قصر الملك مونتزوما الثانى « ملك المكسيك » قال أحد المؤرخين : وكان قصره قطعة

من الجحيم . تعيش الأسود والنمور فيه، وترى الطيور الصارخة .
والطيور المغردة والطيور الجارحة . . وفيه أخطر من هذا كله :
أنواع مجيبة من الأفاعى التى لها ريش . وكانوا يضعون الأفاعى
فى الصناديق ثم يلتون إليها بلحوم الكلاب وكان من عادة الملك اذا
زاره الضيوف أو الأوربيون الجدد ، أن يقدم لهم الطعام وسط
هذه الوحوش . وكان حريصا على أن يجعلها جائعة فتعوى وتنبج
وتصرخ — أما الثعابين فيكون لها فحيح قريب رهيب .

وفى الرسائل التى وجهها كولبوس الى الملوك الكاثوليك فى اوربا
سنة ١٥٠٣ ، وكان فى ذلك الوقت فى جامايكا يقول : ان فى هذه
البلاد أسودا وقططا ضخمة فى حجم الانسان نفسه .

وفى هذا العالم الجديد لا أحد يشرب اللبن أو يذوق لحم الحيوانات
— الاغنياء والتبلاء ورجال الدين فقط — أما بقية الناس فلا قدرة
لهم على هذا الترف العظيم .

وعندما استولى البرتغاليون على البرازيل اطلقوا عليها اسم
أرض الببغاوات . وان كانت كلمة « البرازيل » فى اللغة البرتغالية
تعنى نوعا من الخشب الثقيل الذى يخرجون منه الصبغة الحمراء .
ولكنهم كانوا يسمون هذه البلاد بجنة الطيور . وكان من عادة
البرتغاليين أن يدرسوا ويسجلوا ملاحظاتهم على كل الطيور
والحيوانات والنباتات التى تلفت عيونهم . بينما كان الأسبان
مشغولين فقط بالبحث عن الذهب .

وعلى الرغم من أن الثمار فى العالم الجديد كبيرة الحجم ، فان
الحيوانات كانت صغيرة الحجم . وهذا العالم الجديد لم يعرف
الفيل الهندى الحشى ولم يعرف التمساح النيلى الكبير . وانما
فى العالم الجديد تماسيح صغيرة . ولم يكن يضاسيق المستعمرين
الجدد سوى الحشرات التى تلتصق . وسوى الأفاعى التى تبص
دمهم فى الليل .

أما الهنود الحمر فهم يأكلون كل الحيوانات فيما عدا حيوان آكل النمل .

وبعض القبائل تأكل الانسان نفسه وعندها أسباب كثيرة لذلك . أما أن يكون ذلك بدافع الانتقام . . أو بدافع المحبة . . فنجد القبيلة تأكل شخصا من قبيلة أخرى ، ومعنى ذلك أن دمه واحد . وجسمها واحد . والروح واحدة . وتقام لذلك طقوس هائلة بالطبول والرقص والبخور .

من عادة هذه القبائل اذا أسرت عدوا أن تكرمه فتعطيه الطعام الذي يجعله أسمن . بل ان بعض القبائل عندما كانت تأسر الأوربيين كانت تحبسهم وتقدم لهم أفضل الطعام وتقدم لهم بنات القبيلة ليكون زواج واطفال . أما الذكور — فلأنهم أولاد الرجل — فيأكلونهم . أما الإناث — فلأنهن بنات المرأة — فلا يأكلهن أحد . ثم لابد من أكل الذكر حتى لا ينتقم لوالده .

وقد روى للعالم كله مثل هذه القصص رجل أوربي وقع في الأسر . ورفضوا أن يأكلوه رغم ما قدموا له من طعام ، لأنه كان جلدا على عظم !

وقاوم الأوربيون هذه الوحشية ، فأصدروا القوانين التي لا تحرم قتل الانسان ، وانما تحرم أكله . وبينما صغرت هذه القوانين كان بعض الأوربيين يبيع للهنود الحمر سكاكين أكبر لكي يتمكنوا من ذبح الانسان بسهولة !

ولم تتوقف هذه الأعمال الوحشية الا عندما انتقلت الأبقار والجاميس والأغنام من أوروبا لكي تكون فداء للانسان من الانسان . . فماتت هذه الحيوانات من أجل ان يعيش الانسان يرببها ويطعمها ويذبحها بعد ذلك !

كل عصر له خرافاته خاصة!

كانت الملكة كاترين بدمتيشى شديدة القلق . وهذا طبيعى جدا ، فهذه ليلة زفافها . وكانت اذا نظرت الى احدى الوصيفات تسال عن شىء ، ترد عليها الوصيفة وهى تضحك او وهى تفمز بعينها ، وفى كثير من الاحيان كانت الملكة تسال قائلة : هل جاء الخاتم الـ ... وقبل ان تكمل سؤالها يجىء الرد : نعم جاء الخاتم ذو الأربعين فصا ..

وتسال الملكة : والصندوق الـ ..

ترد وصيفة أخرى : جاء الصندوق البيضاوى وبه كل المجوهرات حتى الخنجر الذهبى المرصع بالماس .
وتقول الملكة : وهذا الذى يسمونه « عطر الحياة الأبدية » هل هو أيضا .. ؟

— نعم يا مولاتى جاء وبكميات كبيرة تكفى لاسعاد ألف عروس فى ألف ليلة .. !

— و —

— نعم جاء وهو الآن تحت المخذة ..

— و ..

— نعم يا مولاتى .. وأنا التى وضعتہ بنفسى فى كأس الشمبانيا
التي سوف يشربها الملك قبل أن يدخل الى غرفتك .. اطمئنى فقد
اعددنا لسعادتكها الليلة كل شيء ..

— وهل نسيت ذلك الذى أهدته لى الامبراطورة لأشاوله قبل
النوم بلحظات .

— موجود يا مولاتى ..

ولم تكن الملكة كاترين دمديتشى تريد أن تعرف كل هذه الاحتياطات
من أجل ليلة العمر مع أحد ملوك فرنسا . وانما كانت قلقة على
شيء آخر هام جدا .. ولكنها تخشى أن تبوح باسمه أمام الوصيفات
الايطاليات والفرنسيات .. وأخيرا تشجعت وقالت : هل جاء
الكاردينال .. ؟

وصرخت الوصيفات فى نفس واحد : طبعا يا مولاتى ..

وظهرت السعادة على وجه الملكة وأحسن الجميع أن هذا الذى
جاء أهم من كل شيء سمعته حتى الآن . أما هذا الكاردينال فقد
حمل رسالة خاصة من مهابا كليمينت السابع بابا الفاتيكان .

وقد وعدھا بهذه الهدية قبل زواجها . ولما حضر الكاردينال
أدخلوه نورا للفرقة الصغيرة المجاورة لسرير الملكة . ورمى
الكاردينال عباءته القرمزية ووضع علبة ذهبية كبيرة ، وفى داخل
العلبة الذهبية مسحوق نادر .

ان هذا المسحوق هو معالجة طبية لجزء من قرن خلعه من رأس « وحيد القرن » الذى يبلغ من العمر سنتين ويومين !

هذا المسحوق مهم جدا . فالمملكة اذا أحسبت بالسم قد وضعوه لها فى طعامها ، فانها بسرعة تضع المسحوق على شرابها او طعامها . وهذا المسحوق قادر على أن يمتص السم وتعيش الملكة .

وكان ذلك فى القرن السادس عشر فأوربا كلها تؤمن بأن قرن وحيد القرن قادر على شفاء الناس من أكثر الأمراض خطيرة . ولذلك فهو هدية من بابا روما — وهى هدية أغلى من كل الهدايا وأهم .. !

وحيوانات أخرى سيطرت على الحياة الطبية فى أوروبا بعد اكتشاف أمريكا . أكثر هذه الحيوانات خرافية .

ومن الملاحظ أن الانسان الأوروبى اتجه الى أمريكا ، بينما الحيوانات الأمريكية قد اتجهت الى أوربا . وإذا كان كولبوس قد أهدى أمريكا ثمانية من الخنازير ، فان أمريكا قد أعادت الى الخنازير الأوروبية طعامها ، بل أن أمريكا هى التى انقذت خنازير أوربا . . فعندما كانت هناك أزمة اللحوم أو الطعام عموما فى أوربا، انتقلت الذرة الى أوربا ، ولم تكن تعرفها قط . وانتقل سكر القصب أيضا . صحيح أن أوربا هى التى نقلت قصب السكر الى أمريكا ، ولكن أمريكا هى التى صنعت سكر القصب بكميات هائلة، مستخدمة العبيد من أفريقيا فى هذه الصناعة الجديدة . وقد أدى ظهور السكر فى أوربا الى كساد عسل النحل والنحل نفسه . وهذه هى أول مرة

في التاريخ نجد السكر الذي هو ناتج نباتى يطرد العسل الذى هو ناتج حيوانى .

ثم ان الذرة والبطاطس وغيرهما من الاطعمة تد ادت الى انقاذ حياة الملايين من الطيور والحيوانات التى اعتاد الناس فى أوربا ان ياكلوها . ولم تكن البطاطس هذه معروفة تماما فى أوربا . . وقد رأينا فى القرن السابع عشر الامراء يتهادون بالبطاطس على انها شىء غريب عجيب . بل ان بعض الأطباء فى ذلك الوقت قد امتى بتحريم اكل البطاطس لأنها تؤدى الى الامراض الخبيثة !

وظهر الديك الرومى فى أوربا ، قادما من أمريكا بكميات كثيرة . وربما قيل ان الديك الرومى ليس جديدا على أوربا ، فالانجليز يسمونه الديك التركى . والانجليز عرفوه عن طريق الشرق الاوسط . ولكن النوع الذى جاء من أمريكا كان أضخم واكثر تنوعا ، وكان لظهور الديك الرومى اثره الكبير فى الحياة الأوربية . . فى حفلات الامراء والنبلاء والملوك . ومن يرجع الى انب البسلاط فى أوربا يجد الديك الرومى صاحب الصفحات الاولى والعبارات الاولى على السنة الرجال والنساء . كان يقال مثلا : جميل الديك الرومى وأجمل منه أن ينظر اليه الانسان فى عينيك !

يقال هذا الكلام عادة لفتاة جميلة . ويكون رد الفعل التقليدى أن تحنى الجميلة رأسها ، وأن يتقدم صاحب الكلام ويحنى رأسه على يديها ويقبلها . . ويمضى الكلام عن الديك وبقية الأطعمة . وينتهى مثل هذا الكلام عادة بأن تكون هذه الجميلة قد وقعت فى غرام هذا الذئب الذواق للطعام والجمال !

* * *

ومع هذه الحيوانات الواردة من أمريكا ظهرت أمراض كثيرة .
في مقدمتها أمراض الزهري والسلان التي نقلها كولبوس ورجاله
الى أوروبا — هذه حقيقة مؤكدة !

واطلق الانجليز عليها : الامراض الفرنسية . والفرنسيون
وصفوها بانها : امراض انجليزية !

وفي مذكرات كولبوس نجده يقول مثلا : وفجأة شعرنا بظهور
دمامل .. وفجأة شعرنا بنوع غريب من النزيف . ولا نذكر طعاما
معينا ادى الى ظهور هذه الاعراض الغريبة !

ولم يكن كولبوس يعرف هذه الأمراض السرية ، فهي لا تجيء
بعد الاكل وانما بعد المعاشرة لنساء الهنود الحمر !

وحاول أحد بحارة كولبوس أن « يتفلسف » فوصف هذه
الأمراض ، ولكنه عندما أراد أن يجد لها سببا معقولا قال : بسبب
النبيذ الفاسد على الريق !

ولكن أهم ما ظهر في الفكر الاوربي الانبى والحيوانى أن هذه
الرحلات الى العالم الجديد قد أدت الى ظهور حيوانات غريبة الأحجام
عجيبة الالوان . هذه الحيوانات يؤكد كل الفاس انهم رأوها
بأنفسهم . وانهم لم يسمعوا عنها من أحد . وكل كتب القرون الـ ١٥
و الـ ١٦ و الـ ١٧ قد ناقضت بهذه الكائنات الغريبة . فمشرات
المغامرين الكبار يقولون أنهم رأوا الذئب الذى له رأس انسان ،
أو الانسان الذى له رأس ذئب .. واتهم حاولوا صيده . واتهم
قتلوه ، ولكن جاءت ذئاب أخرى وحملت جثته ودفنتها في ضوء القمر!

واكثر الناس رواية لهذه القصة هم البحارة . وهم يتفننون في وصف هذه الحيوانات المائية أو البرمائية (وأذكر أننا عندما ذهبنا الى البصرة بالعراق مهد « ألف ليلة وليلة » أعلن كثيرون من الأبناء أنهم شاهدوا عروس البحر . . شاهدوها واقفة وجالسة ، وانهم يقسمون على ذلك ؟ !) وكل بحارة القرن السادس عشر قد أقسموا على ذلك أيضا . وتؤكد بعض الكتب أن هناك نوعا من الأفاعى طولها ٥٠٠ قدم . وان هذه الأفاعى تلف حول السفن فتسحقها وتبتلع ركبها واحدا بعد واحد . فاذا امتلات هذه الأفاعى بالطعام يستطيع الطفل الصغير أن يقتلها بقطعة حجر ! ولكن اين يكون هذا الطفل وكيف يمكن أن يقتلها ؟

ان الكاتب اولاس ماجنوس قد أصدر كتابا في سنة ١٥٥٥ يصف فيه الكائنات البحرية المخيفة . وقد خصص صفحات طويلة لهذه الأفاعى الكبيرة

وفي القرن ١٦ ظهرت كتب تتحدث عن عريس البحر — سمك على شكل رجل . وهذا السمك لا يأكل الا الزئوج والهنود الحمر . .

أما عروس البحر فلا تأكل الا البيض . . ويقال لا تحب من لحوم الاوربيين سوى لحم الاسبان ! واذا كان عريس البحر يأكل عيون الغريسة فان عروس البحر تأكل قلوبهم . . تماما كما أن سمك القرش يأكل الفراعين والساقين . . وهناك نوع خاص من السمك يقفز من البحر وبقدرة غريبة يستقر على جسم الانسان . ويلتصق به ولا يأكل الا نهود النساء — الفتيات الصغيرات بصفة خاصة !

وربما كان هيروdot المؤرخ الاغريقي هو أول من وصف لنا طائر

« العنقاء » وقال أن هذا الطائر ينطلق كل خمسة قرون من شسبه الجزيرة العربية الى مصر الجديدة حيث مات اجداده . ويظل يبكى على اجداده في مصر الجديدة خمسة قرون ، ثم يعود بعدها الى شسبه الجزيرة العربية ، في مكان ما منها :

وتقول الكسب الأوربية في القرن ١٦ أو مؤلفيها رأو العنقاء هذه . وان العنقاء قد لفت حول عنقها ثعبانا ضخما . هذا الثعبان اذا نظر الى اسنان تحول الانسان الى حجر . . أو ما يشسبه الحجر . وبسرعة ينقض الثعبان على الانسان يمتص دمه . أما العنقاء فتكون قد سلبته عينيه ! وقد صور الفنان الايطالى تشللىنى هذه المعانى وروى هو نفسه قصصا من هذا النوع ، ويقسم أنه رأى ذلك بعينيه — كلهم يتقسمون على ذلك ويطلبون منا أن نصدقهم !

حتى الفنان العظيم دافنشى يؤكد في مذكراته أنه رأى بعض هذه الحيوانات ، التى لم نعتز لها على أثر بعد ذلك . . ودافنشى ليس عبقرىا مخرفا ، وانما هى حالة نشساط مجنون لخيال فنان عبقرى تجعله يرى ما يرى . . انها « حالة سيريالية » أى حالة يطير فيها الفنان الى ما فوق الواقع — كما يقول عنه العالم النفسى الكبير فرويد . .

وشىء من هذا قد أصاب الفنانين والمفكرين بعد اكتشاف أمريكا . .

وقد ظهر عند الاطباء جنون جديد لعلاج كل الامراض . أو نوع من الطموح الطبى . فتوهموا أن هناك مواد نادرة لعلاج الامراض . من ذلك مادة في مخ الغزال . اذا عثرنا عليها ، كان الشفاء في ايدينا . . واحيانا يستخرجونها من الحصوات في كلية الغزال . هذه المادة أطلق

عليها الفيلسوف العربي ابن سينا مادة : البادزهر . وهى شفاء من كل سم ومن كل مرض .

ومن العجيب أن الفيلسوف العربي ابن سينا ، قد شخص الكثير من الأمراض . وجعل مادة البادزهر شفاء لكل داء . . وهذه المسادة نادرة جدا ، ولذلك فكانت تساوى وزنها ذهباً . . أو أضعاف وزنها ذهباً . ولا أحد يعرف ان كنت تشفى حقيقة من كل داء . فالذين كانوا يتناولونها لم يقولوا لنا شيئاً !

وظل هذا « الوهم » سائداً مئات السنين . . ولكن استطاع أحد الأطباء في بلاط الملكة كاترين دمديتشي أن يثبت لها أن مسحوق ثرن « وحيد القرن » ليس ترياقاً يشفى من كل مرض . فقد وضع السم لديك ، ثم أعطى الديك هذا المسحوق السحري فمات الديك رغم ذلك . . ولكن أحداً في بلاط الملكة لم يصدق هذا الطبيب « المخرف » .

ويقال أن البابا كليمنت السابع عندما قارب الوفاة تلفت حوله يسأل الكرادلة ان كان أحد قد وضع له السم — فأتحنوا وبكروا وقالوا : أعوذ بالله ومن يجرؤ على هذه الخطيئة !

ولكن البابا كان يعلم طبيعة الإنسان ، ان واحداً من الحواريين حول المسيح قد سلمه لأعدائه . . فليس غريباً أن يقتله واحد من الذين حوله . . وكان أحد الكرادلة أسرع الجميع الى فهم ما يدور في رأس البابا فأسرع وأتى بمسحوق القرن . . ووضعه في كوب من الماء . . ثم وضع كمية أخرى . . وظهرت السعادة على وجه البابا . . وشرب الكوب ومات . . وقد اهتدى الأطباء بعد ذلك عندما أراحوا

ان يعرفوا سبب وفاة البابا ، الى ان السبب الحقيقي هو مسحوق
القرن السحري !

ومات البابا وسره معه .. ولكن الخرافات تعيش بعد ذلك اطول
عمرا من البابا ، لانها تتبع من جهل الانسان بما لا يعرف ورغبته في
ان يعرف بسرعة . وكل عصر من العصور له حقايقه الجيدة ،
واوهامه الجيدة .. فلا عصر بلا خرافات !



ذهب كل أرض! ندوسها الأضغان!

يقال ان احدى اميرات الصين قررت ان تسعد شعبها . فظلت تفكر في احسن الطرق . ولم تهد الى شيء . يقال نامت وقامت وهى سعيدة جدا . ماذا رأت في نومها ؟ رأت دودة صغيرة تمشى بين اوراق الشجر . ثم تاوى الى بعض الاوراق عندما يخرج من فيها خيط ناعم . . ونظت الدودة تفعل ذلك حتى يتكون من الحرير كفن تموت فيه هى التى دفنت نفسها . ثم بعد ان تموت تصحو مرة اخرى . . لتموت بعد ذلك . . وذهبت الأميرة الى احد رجال الدين تروى قصتها . طمانها رجل الدين قاتلا : ستكون لك حماة قاسية القلب . تحاول ان تدفئك حية . ولكنها هى التى ستموت في النهاية !

ولم تقتنع الأميرة بتفسير رجل الدين . فذهبت الى كبير الكهنة . وقال لها : ان الذى رأيت في نومك حقيقة . اذهبي الى الغابات وابحثى عن هذه الدودة ففيها سر الصين كلها !

وعثرت الأميرة على دودة القز ..

وأصبح دود القز سرا ملكيا منذ أكثر من أربعة آلاف سنة ..
وكانت للصين أعياد للحريير . يتهادى فيها الناس دود القز وبعض
شرائق هذه الدودة العجيبة ..

وانتقل السر من قصور الملوك الى بيوت الشعب . وظلت الصين
تضن بهذه الدودة على كل الشعوب الأخرى وكان يكنى أن يقال أن
مواطننا أخذ معه بعض الدود خارج الحدود ليصدر قرار بإعدامه
سورا .

وتسللت الدودة الى كوريا .. ومنها الى اليابان . ومن اليابان
أصبحت صناعة الحرير ونسيج خيوطه من أهم مخصصات الأسرة
المالكة .. ويقال أن الإمبراطورة إذا غضبت لسبب ما ، وكثيرا
ما كانت تفعل ذلك مما أدى الى تصف عمر زوجها ، فاتها تأخذ ديدان
القز معها وتظل تتأمل قدرة الله ..

ويقال أن إحدى الإمبراطورات كانت تنظم الشعر . ومما قالته :
« حياتي كهذه الدودة .. هادئة ناعمة راضية . وفي النهاية ماذا أنا
الذي أعمل وأنا الذي أتغذى بأكمان من الحرير وأموت في صمت
فألصقت حياتي والصمت مماتي .. ولا أحد يدري بذلك » مفهوم طبعا
أنها تريد أن تقول أنها تتعذب وتعمل وتموت دون أن يشعر أحد
بوجودها — زوجها وأولادها طبعا . والشكوى من الرجل والأولاد
قديمة وتتجدد في كل بيت ومن كل زوجة وأم !

ولم تعرف أوروبا الحرير هذا الا بعد ذلك بألوف السنين .. فملابس
الإغريق والرومان بسيطة جدا . وعندما عرفوا الحرير كان ذلك شيئا
نادرا . ولم يقدر على شرائه الا الملوك والإباطرة . وفي نفس الوقت

كاتبوا يرون أن هذه الملابس الناعمة لا يصح أن يرتديها الرجال .
لأنها ناعمة لينة . ولا يصح أن ترتديها النساء لأنها تكشف الجسم .

وفي القرون السابقة على المسيحية لم يكن الرومان والاغريق قد عرفوا الملابس الداخلية وإنما ظهرت هذه الملابس الداخلية عندما أقبل الرجال على النساء . وفي بلاد الاغريق أيام الفلاسفة سقراط وافلاطون وأرسطو ، كان المثل الأعلى للجمال هو جسم الرجل والرجل نفسه . وفي هذا العصر انتشفت المرأة عن أرضاء الرجل . ولكن بعد أن اتجه إليها الرجل ، بدأت المرأة تخفى وراء ملابس داخلية وخارجية . . وكلما التفت الرجل الى المرأة أكثر عرفت الملابس الضيقة التي تكشفها وفي نفس الوقت تغطيها أيضا . منع الميول الجنسية الشديدة عرفت المرأة الأتمشة الحريرية . . ولكن نساء الطبقة الغنية فقط . فقد كان الحرير غالي الثمن . .

ان الامبراطور يوليوس قيصر قد اشترى ثمنا حريريا ليزين به احد المسارح . ولكنه لم يجرؤ على ارتداء ملابس حريرية . لا يسمح بها لنفسه ولا لغيره . بل اتنا نقرا في احدى المحكمات من يقول :
ولكن كيف اصدق رجلا يرتدى ملابس حريرية . . انه ليس رجلا !

أما الامبراطور الشاذ جنسيا واسمه هليوجبالموس السوري ، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الأحمر في احدى الحفلات . والتفت اليه الناس بدهشة . ويبدو أن الامبراطور لم يلفت النظر بدرجة كافية فانسحب من الحفلة وارتدى الثوب على اللحم وراح يتمرغ على الأرض أمام النبلاء .

ولم يكن هذا الحرير الذي عرفته أوروبا في أوائل العصور المسيحية

قد جاء من الصين . انه نوع ردىء من الحرير . ولكنه غالى الثمن . .
اما الحرير الصينى فلم يظهر الا بعد ذلك بالف سنة . ووصل الى
أوروبا من طرق مختلفة . .

فالامبراطور جستينيان فى القرن السادس الميلادى قد اتفق مع
اثنين من الرهبان على أن يخفيا الحرير فى ملابسهما . وجاء الرهبان
وقد حمل كل منهما عصا مفرغة ، أخفى فيها بيضات الحرير . ودخل
الحرير الى بلاد الامبراطور وتولت زوجته الغائبة الفاتنة الفاجرة
ثيودورا صناعة الحرير . فقد كان لها فى قصرها عشرات الحجرات
أعدتها لعودة القز . وكانت الامبراطورة تغزل الحرير . أو تأتى بمن
يستطيع ذلك . ويقال أن الامبراطورة ثيودورا قد تعاونت مع أحد
أمراء الحبشة على زراعة أشجار التوت فى تركيا القديمة . ونجحت
الأشجار وانتشرت صناعة الحرير فى ذلك الوقت . واحتكرت
الامبراطورة غزل الحرير وحرمته على كل الناس . وكانت الامبراطورة
تستعين بالمفتيات فقط فى تربية وغزل الحرير .

وكان من عادة الامبراطورة ثيودورا كلما فرغت من عمل ثوب
حريرى أقامت حفلة خاصة للملك . وأتت بالراقصات والمغنيات
ورقصت هى أمام الامبراطور فى ثوب من الحرير ثم أتت بثوبها وألقت
به فى برميل النبيذ . . وراحت تمشى عارية تعصر النبيذ فى أفواه
الضيوف !

وكانت تسمى تلك الليلة « الحرير من النبيذ » . . أو « النبيذ من
الحرير » . . وكانت لهذه الامبراطورة أيام اخرى كثيرة . ولكن أروعها
هى ليلة : عصر الحرير !

وكانت هناك امبراطورة أخرى اسمها نيودوسيا . هي أول من ابتكر مسابقات الجمال في العالم .. أو اخيار ملكة الجمال . فقد كان لها ابن جميل وكانت تريد أن تختار له أجمل الفتيات . فكانت تدمو كل أسبوع أجمل عشر فتيات لبختار واحدة منهن . الفتيات جميلات طبعا وقد ارتدت كل منهن فستانا من الحرير . ويرحن ويجنن على ايقاع موسيقى . ومع الليل والموسيقى والشراب ترتفع اطراف الفساتين لتكشف كل منهم على أماكن الجمال . ويختار الفتى بنت الحلال ، ومن الغريب أنه لم يكن يفعل ذلك . ولم تكن الفتيات يضمنن بما لايفعل الأمير . فقد أسعدهن جدا أن يقع عليهن الاختيار . وأن يتعريهن أمام أمراء وشبان آخرين ..

كل ذلك بعد أن تكون كل واحدة قد خلعت أكثر ملابسها الحريرية التي تدل على أنها من أسرة قاهرة على شراء فساتين من الحرير الصيني !

وأصبح العالم كله يتحدث عن طريق الحرير ، أو طريق تجارة الحرير الذي يبدأ من بكين مارا بالهند وإيران وتركيا .. وسوريا . وقد انتقل الحرير من شمال أفريقيا الى أوروبا في القرن الثامن عن طريق العرب . فالعرب أدخلوا صناعة الحرير الى ايطاليا وجزيرة صقلية والى اسبانيا . صحيح ان دودة القز لم تكن قادرة على الحياة في الاجواء الباردة . فماتت بالملايين . وكذلك أشجار التوت لم تتحمل البرودة والجليد فمضلت . ولكن استطاع الانسان أن يتغلب على هذه الصعوبات .

وقد شهدت أوروبا الملكة اليزابث وهي ترتدي جوربا من الحرير،

صنعته احدى وصيفاتها . اسم الوصيفة أصبح ماركة للقمصان الانجليزية : مونتاجى . وكانت ملكة انجلترا تستورد خيوط الحرير من اسبانيا . وظلت انجلترا تستورد الحرير من اسبانيا في أشد الظروف قسوة ، وفي نفس الوقت كانت انجلترا تحرم تصدير الصوف الى الخارج . . وبينما كانت اسبانيا تحتكر دودة القز كانت انجلترا تحتكر اغنام الصوف .

وفي سنة ١٥٩٨ أعلنت الملكة اليزابث فى احدى الحفلات الرسمية أن لديها ستة أزواج من الجوارب الحريرية . ويبدو أن هذا خبر شخصى جدا . ولكن الملكة ارادت أن تقول أن هذه هى البداية . . وسوف تظهر جوارب أخرى كثيرة ، ولم تظهر الا بعد ذلك بوقت طويل !

فى ذلك الوقت كان أحد المهندسين الانجليز واسمه « لى » يعانى من أزمة حب شديدة . انه يحب فتاة جميلة . ولكن اذا ذهب اليها تنسفل عنه تماما . فيظل هو وحده يتكلم . وهى لا ترد . واذا ردت فاتها لا ترفع رأسها لكى يرى عينيها . أن عينيها تركرتا على شيء فى يديها . أنها تغزل خيوط الصوف لعلها تصنع جوربا او شالا . . ولكنها لا ترد . هو يحبها . وهى أيضا . ولكن الحب كلام ، ولا كلام بينها . أو هو الذى يتكلم وهى التى تسمع دون أن تقول شيئا . وانكسر قلب هذا المهندس . واختلى عن العيون سنة . ثم عاد يطلب مقابلة الملكة اليزابث وأذنت له . وتقدم لها جهازاً من اختراعه يعنى المرأة من غزل الصوف بيديها . لانه لا يريد حبيبته أن تفعل ذلك . وان تتحدث معه بعض الوقت . وقالت الملكة : كنت أظنك قد اخترعت شيئا لغزل الحرير .

وقال المهندس : أعمل ذلك حالا !

واختفى المهندس سنة ليعود الى الملكة بجهاز جديد لغزل الحرير حتى لا تفلسغ عنه حبيبته . ولكن الملكة لم تفرح بذلك . لان هذا الجهاز سوف يجعل الحرير في متناول كل الناس . وهي تريد الحرير خاصا بها وبالاسرة المالكة . ثم ان مغازل الحرير او الصوف سوف تؤدي الى تعطيل الوف الأيدي العاملة . فذهب الرجل الى فرنسسا يعرض اختراعه الجديد . ولكن فرنسسا كانت مشغولة في الأحداث التي أعقبت اغتيال الملك هنرى الرابع . . وزاد حزن الرجل وعاد الى حبيبته فوجدها تتكلم وتنتظره . . انها الآن لم تعد تغزل لا الصوف ولا الحرير — لقد فقدت بصرها !

وفي عصر لويس الثالث عشر عرفت فرنسسا التتشف والبهذلة في اللبس . وكان هذا الملك متشددا ، مخربت مغازل كثيرة في معظم المدن الفرنسية . . وتشرد الدود على الشجر . وماتت الشرائق وطرد الحرير من بلاد الاتاقه !

ولكن أعيدت كل هذه الصناعات بعد ذلك . واعلن الكاردينال ريشليو : أنه من الحماسة أن نحرم على أنفسنا ما أراد الله لنا من جمال — أعيدوا الدود الى الشجر ، والحرير الى الأزياء !



وإذا كانت « دودة القز » هذه قد زحفت من آسيا ، فان « الأقماع » أيضا قد جاءت من آسيا ، ولكن في عصور قديمة جدا . وربما كانت

الأغنام أكثر الحيوانات هجرة من مكان الى مكان . . ففى كل عصور التاريخ كان هناك رعاة ، لان الأغنام قد سبقت الانسان . . ولكن الأغنام التى ظهرت فى أوروبا كانت ضئيلة الحجم وكان شعرها خشنا جافا . أما الأغنام الجيدة فهى التى جاءت من آسيا ، ومن شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة . .

وظلت هذه الأغنام يختلط بعضها ببعض حتى كان هذا النوع الأسباني الشهير باسم مرينو . وهذه الأغنام وصلت الى أسبانيا تماما كما وصلت دودة القز عن طريق شمال امريكا . . وبوصول الأغنام الى أسبانيا بدأت حرب الخيوط بينها وبين بريطانيا . . خيوط الحرير وخيوط الصوف . . احتكرت أسبانيا الحرير ، واحتكرت بريطانيا الصوف . وبدأت معركة السيادة على الاسواق . . ومعركة السيادة على البحار . واهتدت بريطانيا الى أنه من الأفضل أن تنقل الأغنام من بلادها الى المستعمرات . فانتقلت الأغنام الى المراعى الأكثر غنى فى مستعمراتها . وفى عصر حرب الخيوط ، أكلت الأغنام الأرض المزروعة . . بل إن الناس فى بريطانيا كانوا يقتلعون الأشجار ويتركز الحشائش غذاء للأغنام التى تعيش عليها بريطانيا . بل أن رجال الدين الانجليز كانوا يخطبون فى الكنائس يطلبون من الله أن يرفع عنهم لعنة الأغنام التى أكلت الأشجار وحولت المدن الى مرعى تأكل عليه . . وكانوا يقولون : أن الله خلق الأرض للانسان فتركها الانسان للأغنام . فاستحق الانسان لعنة الله !

وكان الناس يقولون : ذهب كل أرض تدوسها الأغنام !

ولما اهتدت بريطانيا الى أماكن أغنى وأدفا خارج جزيرتها ، انتقلت اليها الأغنام . وعادت الزرامة الى الأرض . وعادت الأرض الى الانسان !

- واخترع الانسان الالة لتعاون دودة القز وتعاون الاغنام ••
- ثم عاد الانسان يخترع اجهزة اخرى لتأخذ مكان الديدان والاغنام،
عندما اخترع الخيوط الصناعية ••
- ولكن لا تزال هذه المنتجات الطبيعية — خيوط الحرير وخيوط
الصوف وخيوط القطن — اروع واجمل ••
- ان دودة صغيرة ضعيفة قد طردت امامها ملايين الاغنام • فما اكثر
ما تفعله دودة في حياة الانسان •



الطريقة لتعليم الإنسان كيف يكون حسانا نبيلًا!

لم يفهم القاضي طبيعة الخلاف بين رجل
وزوجته . وعاد يسأل الرجل :

ولكن لماذا أصبح هذا الخلاف حادا الى هذه
الدرجة . اليست هي زوجتك !

يقول الرجل : بلى واحبها !

تقول الزوجة : كذاب يا حضرة القاضي ! كان
يحبني فيما مضى . اما الآن فلا .. ضحك على
حتى جعلتني اترك اهلي وديني . وبعد أن تمكن
مني ، وصلنا الى ما نحن عليه .

يقول الرجل : ولكن ما الذى نحن عليه .. انه خلاف اخترعته .
وهي التي طلبت ان اجيء اليك وأن تكون مشاكلنا فضائح . فماذا
أصبحت فضائح ضمنت أنا أمام الراى العام . ولكن لن أغير موتى .

يقول القاضي : كنت تحبها ؟

— نعم . ولا أزال .
هى تقول : كان يحبني !

القاضى : فى وقت من الأوقات كان هناك حب .. وفجأة تغير كل
شئ .

الاثنان يقولان فى نفس واحد : نعم ! .

القاضى : منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع .

القاضى : وانتما متزوجان منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع !

والقضية ليست عاطفية . وانما جلس هذان الزوجان من أبناء
البرتغال يحلمان بعدد الأطفال الذى سوف يكون . قالت الزوجة :
أريدهم جميعا من البنات . وقال الرجل : بل من الأولاد ..

واتفق الاثنان على أن يكون ثلاثة من الأولاد واثنان من البنات .
وجلس الزوجان يحلمان ويفكران فى أحسن الأسماء . وتالت الزوجة :
أنت الذى تحسن الكلام والتعبير . وهذا هو الذى جعلنى أموت نيك
هياما .. أنت تختار الأسماء . أنا آتى لك بالأولاد والبنات وأنت
الذى تسمى هذه الذرية الصالحة أن شاء الله ..

وفجأة صرخ الزوج : وجدت الأسماء ..

وسمعت الزوجة الأسماء وصرخت . ولطمت خديها . وثسقت
ثوبها .

وقالت : الطلاق .. لا حياة معك . أنت رجل مجنون !

أما لماذا هو مجنون فقد اختار هذه الأسماء لأولاده : النمر ..
الفيل .. الخريت — للذكور . أما الإناث : الغزالة .. النسفاة ..

ولم يكن الرجل يداعب زوجته . ولا يريد أن يطلقها . وإنما هو
« ابن عصره » . وفي ذلك العصر انشغل أبناء أوربا بالحيوانات
القادمة من الشرق . وروا فيها أجمل وأروع ما خلق الله .

صحيح أن كولبوس اكتشف أمريكا ولكنه فتح أبواب الشرق : إلى
أفريقيا وآسيا .. وإلى الهند .. وأصبح كل الذين يرتادون الطرق
إلى الشرق السحري ، أهم من الذين يزحفون على أمريكا ، بل إن
الرحلة فانسكو داجاها أهم من كولبوس .. وأفريقيا أهم من أمريكا
.. وهزيمة الأسطول التركي في المياه اليونانية ، أروع عند الإسبان
من كل معاركهم وفتوحاتهم .. وأصبحت هدايا قبائل أفريقيا أعظم
وأغلى عند أهل البرتغال من كل ما يجيء من مستعمراتهم الكبرى :
البرازيل ..

وفي القرن السابع عشر أعلن أديب إسبانيا العظيم سرفانتس : إن
مدينة لشبونة هي مركز الدنيا . إليها يجيء الذهب . ومنها يخرج
الرجال إلى مجاهل الشرق الساحر الباهر ..

وأصبح من مظاهر الثراء عند الناس في أوربا أن يستعرض كل
منهم ما لديه من حيوانات غريبة .. فكان الذي يمشى في شوارع
مدريد يرى الحيوانات من نوافذ البيوت .. ويرى الطيور الملونة ..
وبسرعة تحولت التصور إلى حظائر للحيوانات الأمريكية ..

ومن الغريب أن هذه الحيوانات لم تظهر في لوحات الفنانين . ولكن
في حالات نادرة ظهرت بعض الطيور بألوانها الزاهية .

وكانت أشهر الحيوانات التي لفتت الأوربيين وشغلت الصيادين:
الأسد والفيل والنمر والضبع والنعامة والخرتيت .

وكان الإمبراطور الألماني فريدريش الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) من
أكثر الناس حبا للحيوانات . وكان يقيم لها حديقة ملحقة بقصره .
وحدائق الحيوانات عادة استعارتها أوروبا من ملوك الشرق .

وبعد ذلك تعود الناس في أوروبا أيضا أن يجدوا حدائق للحيوانات
ملحقة بقصور الملوك والتبلاء . وربما كانت أشهر حدائق الحيوان
في أوروبا يملكها البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ - ١٩١٤) وهو واحد
من أسرة مدينتشي الشهيرة العريقة . وكان هذا البابا يحب الحيوانات
ويرعاها ويدعو إلى الرحمة بها والعطف عليها . وكان يعطف على
الفنانين . « فالفنان حيوان يحب الحيوان . لأنه يحب الحياة وجمال
الحياة وحكمة الله » .

وحدث قبل ذلك عندما زار البابا بيوس الثاني (١٥٠٤ - ١٥٦٤)
أحد التبلاء من أسرة مدينتشي أن أقامه موكبا فخما . وجعل الحيوانات
تتقدم هذا الموكب . ووقف الناس يتفرجون على هذه المخلوقات
العجيبة . وكان عدد هذه الحيوانات كبيرا . ولكن لم تكد الأسود
ترى بعضها البعض حتى أفلتت من قيودها . وتحولت إلى أشلاء
ودماء . . الا زرافة . هذه الزرافة كانت هدية من أحد سلاطين
ممالك مصر إلى أسرة مدينتشي . ويقال أن أحد الشعراء قد
ارتجل قصيدة عندما جاءت هذه الزرافة إلى مدينة تلورنه .

يقول في قصيدته : طال كل شيء فيك . عنقك وسيفتاك
الأربع وأذنك وأنفك .. أما عينك فهما مسروقتان من
وجه حبيبتى .. أما لونك فمستعار من براكين صقلية .. أما
مقامك العالى فلا يعيبه الا أن رأسك صغير وعنقك أيضا .. ولكن
ليس من الضروري أن يكون الجميل عاقلا .. يكفى أن يكون الجمال
والجميل أكبر لصين لكل العقول « .

وهناك يوم في تاريخ الانسان أو في تاريخ المغامرات أو في تاريخ
الحيوان لا ينساه أحد عندما أرسل ملك البرتغال مانويل هدية الى
بابا الفاتيكان بيوس العاشر . الهدية : فيل واثان من النور وضبح
قد ركب حصانا عربيا . أما الخريت الذى أرسله الملك مانويل فقد
فرقت به السفينة في البحر الأبيض .. ويقال أن الخريت ظل يضرب
السفينة حتى خرقتها واندفعت المياه . والى الخريت بنفسه في
البحر ..

ومشى الموكب في شوارع روما .. والناس يتفرجون على أعاجيب
الهدية الامريكية . ودقت أجراس الكنائس .. ووقف البابا يشير
الى أن تضرب المدافع .. وانطلقت المدافع ووقف الفيل على رجليه
الخلفتين ورفع زلومته الى أعلى يحيى البابا والكرادلة أمراء الكنيسة
.. وبسرعة تقدم أحد الحرس الملكى البرتغالى بثلاثة جرادل من
الماء المعطر .. ووضعها أمام الفيل .. ومد الفيل خرطوميه وملاه
بالماء وراح يرش البابا والكرادلة والناس يصرخون من الفرحه ..
وكان يوما مشهودا في تاريخ الحيوان ، والعلاقة بين عرش البرتغال
وكنيسة روما !

وأرهب رجال الدين أنفسهم في شرح ما حدث . تالوا : ان الفكرة

هى أن يدرك الانسان بوضوح انه مهما كانت الحيوانات قوية ، فان الانسان هو الاقوى بذكائه . ان هذه الحيوانات قادرة على سحق اقوى الرجال ، ولكن الحيلة تغلب القوة . والفكاء يقهر الوحوش . .
فهذه الحيوانات كلها قد احتال عليها الانسان وأتى بها من غابات لتكون ذليلة ذلولاً أمام أصغر الأطفال . ثم أنها مخلوقات الله . ومن الواجب العطف عليها ومحبتها !



وأول مظهر من مظاهر الحب والعطف والاعجاب كان بالحصان . ان تاريخ الحصان والانسان طويل . فالحصان في العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندي المغطى بالحديد ، ويتغطى الحصان بالحديد ، ويدخل الاثنان المعارك حتى الموت - الحصان هو الذى يموت غالباً . وكان من الصعب على الانسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات أربع أرجل . ولكن أحداً لم يلتفت الى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل . فهو وسيلة لشيء ، ولم يكن غاية . فلما أحدث فكر فيه ، أو التفت اليه . . أو نظر الى تركيبه الجسمي الجميل أو الى خطوته . . وانما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل .

ولكن بعض النبلاء الإيطاليين في القرن السادس عشر ثبته فجأة الى أن هذا الحيوان الجميل . يقول النبيل الإيطالى مديريكو جريسوني في مذكراته : « كل شيء حدث فجأة . وكأني لم أر الحصان في حياتي تط . . لقد نظرت اليه . . وتأملته . . وأحسست كأني نبي مكلف بانتعاز هذا الحيوان من الانسان . . فهذا الحيوان شكله جميل ،

وخطوته قوية ناعمة . وحركته رشيقة .. وهامته مرفوعة .. انه واحد من النبلاء هجر حياة الانسان واحتبس في هذه القلعة الفخمة من اللحم والشحم . ان هذا الحيوان أسير، وأنا الذى سوف أحرره»

وبدا النبيل جريسونة يعلم الحصان كيف يخطو . وكيف يقفز من فوق الحواجز .. وافتتح مدرسة لتعليم الخيول . أو على الأصح ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول، بما تستحقته من التقدير والاحترام والحب ..

وانتشرت اخبار هذه المدرسة . وجاء النبلاء . وجاءت الخيول وتعانق الانسان والحيوان في اطارات من الحركة الجميلة . ويمكن أن تسمى هذه الحركة الفروسية : أى أن يكون الانسان فى سمو الحصان وفى جماله .. وان يكون شهما نبيلًا . محبا للحياة والحيوان والانسان ..

ومن بعده جاء رجل ايطالى آخر اسمه بنياتللى . هذا الرجل هو الذى وجه الدعوة الى بلاط الملوك والامراء وهو الذى وجد الشجاعة ليقول : « مولاي » صاحب الجلالة يجب الا يكون القصر الملكى زريبة للخيول . وانما يجب أن يكون مقرا شتويا وصيفيا لعدد من الأصدقاء الأوفياء لهم أربع أرجل وذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة .. يجب أن يكون النبلاء والامراء أصدقاء للخيول ، أى أصدقاء لطراز من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال والاثانة .. مولاي صاحب الجلالة .. ان كل قصر يضم خيولا تأكل وتشرب من أجل أن تموت فى القتال ، ليست الا مجزرة الا زريبة ملكية .. مولاي أنت حر فى اختيار أصدقائك وأصفيائك .. ولكن

يجب ، يا مولاي ، الا تنسى هذه العبارة التي تعلمتها من الخيول :قل
لى كيف تعامل حصانك اقل لك من أنت .

وجاءت الخيول بالملات والنبلاء بالالوف الى « اكاديمية تعليم
الانسان كيف يمشى كالحصان » فى مدينة نابلى الايطالية . وكان
بنياتلى يعلم الخيول كيف تمشى على الايقاع الموسيقى . وكيف
ترقص وحدها . . أو قد امطأها أحد النبلاء . . أن عصرا من احترام
الانسان للانسان أو للحيوان قد بدأ . . وكانت البداية هذه المعاملة
النبيلة لحيوانات أكثر نبلا هي : الخيول !



ولاسباب متعلقة بمزاج الشعب الاسبانى ، لقيت الثيران نوعا
آخر من المعاملة . بمصارمة الثيران القديمة . ويقال قديمة جدا لدرجة
أن علماء الآثار يجدون نقوشا على الكهوف القديمة لثيران قدأصابها
السهام . رهى تنزف وتجرى . . والانسان لم يظهر فى هذه النقوش .
اما لانه من المفهوم انه هو الذى أصابها ، أو لان رسام النقوش أراد
أن يقول أن الثيران كانت أسرع منه فى الهرب لدرجة أنه لم يستطع
أن يلحق بها فيظهر فى هذه النقوش !

ويقال أن هذه الثيران متعددة الاصول . بعضها ثيران اوربية
وحشية . . وبعض هذه الثيران جاء من افريقيا . .ومن مصر . وبعض
الثيران تشبه الأبقار المرعونية القديمة .

وقمصص ،الثيران ونوادرها فى تاريخ أسبانيا والبرتغال كثيرة جدا،

ولانتزال . . يقال أن الملك الفونسو السابع ، أحد ملوك البرتغال أقام مصارعة للثيران بمناسبة تويجه . ولم يكتف بالدماء التي سالت في هذه الحفلة ، فقرر أن يقولى هو اطلاق السهام على عشرين ثورا حتى تقتها والجماهير سعيدة بهارة ملكها !

وعندئذ ولد للملك الاسبانى كارلوس الخامس ابنه فيليب الثانى سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران . وان يكون هو فارسها الأوحد . وظل يقتل من الثيران حتى همسوا في أذنه بأنه لم تبق في المملكة ثيران . قال : انن تؤجل الحفلة يا سادة الى أن تجيء ثيران أخرى من بلاد أخرى !

ويقال أن السياسى الايطالى الكبير الاسبانى الاصل شيزاره بورجيا (١٤٧٦ — ١٥٠٧) قرر أن يتسلق في احدى الليالى . وكان له عشرون ثورا في احدى القلاع . . فظل يطلق عليها السهام حتى قتلها في ليلة بدأت بغروب الشمس حتى مطلعها . فنقلوه الى فراشه مرهقا وهو يقول : لقد كان عملى شاقا هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء في أسبانيا أن يصارعوا الثيران وهم على ظهر الخيل . حتى اذا هاجتهم الثيران أنلحوا في الهرب منها . وفي عصر الملكة ايزابيلا غطيت قرون الثيران . ولكن الجماهير لم تسعد بذلك . . فاهتدى الاسبان الى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة محببة لكى تكون مغزعة لمصارعى الثيران وللمتفرجين . .

وفي البرتغال كانوا يضعون طبقة من الجلد على قرون الثيران . . وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة ،

فان شكلها أقرب الى الصيد منه الى الرياضة. فالمصارع لا يداعب الثور بعنف ، وانما هو يصيده ، ويقتله في النهاية .. فهم يضعون الثور في حظيرة مظلمة لبضعة ايام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج الثور الى النور . ثم يجيء من يمسك له غطاء أحمر داميا .. ثم من يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماؤه .. كل ذلك لكي يثور الثور . فاذا ثار وهاج ، تقدم الفارس أو « المتادور » — ومعناها الجزار — وراح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ . فاذا داخ انقض عليه .. ومن العجيب أن الثور يخرج من الحظيرة مرهقا . وكأنه يعرف ما سوف يحدث له ، فانه لا يريد أن يشترك في صراع مع احد .. بل انه يريد أن يهرب من النور الى الظلام ، غير أن باب الحظيرة قد أغلق .. وليس له الا أن يقاوم ، وهو مرهق تماما .. فكان المصارع قد خرج يصارع حيوانات مكنودة . ولكن الجماهير تصرخ .. وأحيانا الأعمرة النارية .. ولا بد أن يقتله ، سواء صارعة او لم يصرعه .. لان الجماهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور . والرقص والغناء للبطل الذي قتل الثور أمام ملايين العيون في كل مكان .

وأصبحت مصارعة الثيران مهنة . حرفة .. غالية الثمن .. ومربحة . وأصبح للثيران تاريخ . وهم يحرصون على اختيارها وتربيتها . وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ، ولا يحيلونه الى التقاعد ثم يأكلون لحمه بعد ذلك .. لا بد أن يموت !

وحاولت أسبانيا كثيرا أن تشغل الناس بمصارعة الديوك .. ولكن هذه المصارعة موجودة في المستعمرات الاسبانية القديمة .. نجدها في الفلبين ، وبعض الجزر الآسيوية .. وهذه المصارعة تلقى نفس الاهتمام ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقيم مصارعة للثيران لانها غالية الثمن .. ولكن هناك مقامرات على الديوك التي تشترك في

المصارعة أو في القتال .. ويضعون الامواس والسكاكين القاطعة
في أرجل الديوك . فلا يكاد يبدأ الشجار بين الديوك عندما ترتفع في
الهواء وتضرب الخصوم بأرجلها ، حتى تسيل الدماء ..

وبقيت مصارعة الثيران هي « الرياضة » العنيفة التي يقبل عليها
الأسبان .. ويعرفون تاريخ ثيرانها وابطالها .. هؤلاء الأبطال الذين
اتاروا الفزع بين المتفرجين : وفازوا بللمال والمجد في النهاية ، من
مئات السنين ، وحتى اليوم !



من يعرف الإنسان كثيرا يحتشم الحيوان أكثر!

• على باب إحدى خلايا النحل وقف رجل انجليزي في دهشة . وانتهت دهشته بان صرخ ، فقد لسعته نحلة . وعاد الى البيت ليقول : شيء فظيع . كذب كل ما قاله الشمراء . الحقيقة شيء آخر .. ان هؤلاء الشمراء قد اخروا الحضارة الانسانية الوف السنين . لو استطيع ان اجمعهم في مكان واحد واطلق عليهم النحل .. لو استطيع تلك لارحت الانسانية كلها ! ..

ولم يستطع هذا الكاتب مندفييل ان يحشر الشمراء في خلية واحدة ويستريح منهم . ما الذي حدث لهذا الكاتب الانجليزي سنة ١٧٢٠؟ لقد رأى إحدى خلايا النحل . ووجد بها حركة ونشاطا عظيما . وفجأة وجد النحل يتزاحم على دبور ، طردوه . ثم عاد الى الخلية . طردوه وعاد مرة ثانية وأخيرا تكاثرت النحل عليه .. وسقط الدبور ميتا !

واندهش الرجل كيف يحدث هذا في مملكة النحل . كان رأيه مثل

الشعراء انها مملكة تصنع العسل بالدموع . مملكة تكرم المراة وتقبلها حاكمة عليها . . وان خلية النحل تطعم الملكة لتكبر الملكة ويتحول الجميع الى خدام لها . . كل ذلك يتم في هدوء وسلام . . والنتيجة عسل . ولكن هذا الحادث الاليم جعله يعاود التفكير في احوال هذه الخلية . . وأصدر الكاتب الانجليزى كتابا عنوانه « خلية النحل او كيف تتحول الرذائل الشخصية الى فضيلية عامة » يقول:

هذه الخلية قائمة على الظلم . فالنحل المشغال يعمل . وهناك انواع اخرى من النحل لا تعمل . وانما تدور حول الملكة وتحميها وتتابعها . النحل المشغال يجمع الرحيق من كل مكان ويفرزه ولا يذوقه . والملكة لا تقوم بأى دور سوى أن تأكل وتشرب وتبيض ويقول في كتابه ايضا أن النحل طلب من آلهة الاغريق أن تعاونه ولكن الآلهة تعبت من انقاذ النحل من نفسه وخربت الخلايا وماتت الملكة واحترق النحل المشغال . أما الدبابير فقد أوت الى جذع نخلة وعاشت أياما للموت بعدها بقليل .

وهاجت الحكومة الانجليزية ولعنت هذا الكتاب واتهمت المؤلف بأنه يريد المساد الاخلاقيات العامة . . وانه يهاجم النظام الملكى . . وانه يريد أن يشوه كل شىء جميل فى هذه الدنيا . . وانه هو الذى يقوم بدور الدبور وانه سوف يلقى نفس المصير . . ولم يلقى الرجل نفس المصير ، وانما عاش الكتاب بعد ذلك مئات السنين كصورة جميلة لمحاولة اصلاح الانسان !

وبعد ذلك بسنوات ظهر تسييس ايرلندى اسمه سويفت . وقد وضع فى جيبه نسخة من كتاب مطبوع تحت اسم مستعار ، اسم

ابن أخيه . الكتاب اسمه : « رحلات في بلاد بعيدة لجيلفر ، كان طبيبا أول الأمر ثم بحارا لعدة سفن بعد ذلك . . » ومن مغامرات جيلفر هذا أن سفينته قد رست عند أرض سكانها من الخيول ان الخيول أذكى وأشجع وأعقل وأكثر نبلا . ولكنها تجد صعوبة في الكلام . وفي هذه الأرض سمع عن حيوان منحط غبي . وأن هذه الخيول تحاول أن تروضه وان تعلمه ولكن يبدو أنه لا أمل في ذلك . . هذا الحيوان الذي تسميه الخيول « ياهوه » ليس الا الانسان نفسه ا

كان جيلفر يريد أن يقول : أن الانسان ليس أسمى الحيوانات . وانما هو حيوان من نوع ردىء ولكنه لن يتأكد من ذلك الا اذا سافر الى بلاد أخرى .

وعلى الرغم من أن رحلات جيلفر من أروع الأعمال الأدبية والفلسفية ، فان هذه الرحلات قد أصبحت قصصا للأطفال ذات دلالة أخلاقية . أو ذات مغزى فلسفى . . ولكنها رغم ذلك من الأعمال الأبقى والأمتع .

وقبل هذه المقارنات الساخرة بين الانسان والحيوان ، أو بين الانسان والحشرات ، وجدنا في عصر النهضة تساؤلا استغرق مئات السنين : لماذا نجد الانسان يقتل الانسان ، ان الحيوانات لا تفعل ذلك ؟ أيهما الحيوان : الانسان أم الحيوان ؟

وكانت الاجابات كثيرة .

لمن بين الاجابات في عصر النهضة ان الانسان حيوان لانه قليل

الدين . ولو عرف الدين ، لارتفع بالايمان عن مستوى الحيوان . ولكن
الانسان حريص على كفره ، فأصبح هذا الحيوان الكريه . وان
الانسان قد حلت به لعنة الخطيئة الاولى . خطيئة آدم في الجنة عندما
اكل من الشجرة التي حرمها الله عليه وعلى زوجته .

ثم ظلت المقارنة بين الانسان وبين الحيوان فترة طويلة . فاذا
أراد الانسان أن يفهم نفسه نظر الى هذه الحيوانات . لان هذه
الحيوانات ليست الا نوعا من الانسان عاجزة عن التعبير ولانها
عاجزة عن التعبير فهي عاجزة عن الكذب واخفاء مشاعرهما . فهي
أصدق من الانسان . أي أن الحيوان هو الانسان قبل أن يتعلم
الكذب . فالحيوان أفضل من الانسان .

ولكن المعنى في كل عصر النهضة الاوربية هو هذه العبارة
البليغة التي قالها الفنان بأوبوتس من الوف المسنين : الانسان
ذنب لأخيه الانسان
Homo homini Lupus .

وحتى عندما قال الفيلسوف العظيم أرسطو : أن الانسان حيوان
سياسي
Zooir Politikon
لم يكن بذلك يرفع من قدر الانسان وانما أراد أن يقول أنه حيوان
لايستطيع أن يعيش بمفرده . ولكن لابد أن يعيش مع الآخرين وبهمـ
والحيوانات تفعل ذلك أيضا !

فقط عندما ظهر الساخر الفرنسي الكبير مونتني بدأ الفكر الانساني
كله يتجه ناحية أخرى . فهذا الفيلسوف الفرنسي يقول : لا أظن
أن الانسان أفضل من الحيوان . انه أخط من الحيوان . واعتدـ

اننى تجنيت على الحيوان عندما وصفته بأنه منحط . فالانسان هو الذى قال انه أسمى من الحيوان . وهو قال ذلك لأنه مغرور فقط .

فلا توجد صفة واحدة عند الانسان لا نجد صفة افضل منها عند الحيوان فالحيوان أقوى وأشجع . وأكثر تضحية من أحل الزوجة والابن . أن ذكور الذئب تفدى انائها وصغارها بالموت في مقدمة القطيع ودفاعا عن الجميع . . وان الحيوانات أكثر نبلا من الانسان . . ان الطيور تفرغ بطونها في بطون صغارها وتكاد تموت من الجوع . . ان الاسد يصيد الفريسة ثم يتركها لبقية الحيوانات في الغابة ويجد المتعة الكبرى في أن يرى الجميع تفعل ذلك . . أرونى حاكما يفعل ذلك من أجل شعبه !

ثم أن الحيوانات محبة للسلام . انها لا تتشن الحروب . ولا تعتدى على أحد . كل ما تريده هو أن تظل في مكانها تأكل وتتشرب في هدوء . . الا اذا هاجمها أحد . ويكون هذا الأحد هو الانسان عادة . فهو الغاشم المعتدى والحيوانات هى الضحية !

وإذا اشتبكت الحيوانات مع الانسان في عراك فلبعض الوقت ، وبعد ذلك تهذا أو تسكن كأن شيئا لم يحدث ، وكأن دماء لم تنسل ، وكأن صغارا لم تمت .

وتوجد حيوانات يساعد بعضها البعض . . يقول مونتني : أنه رأى عددا من الطيور المهاجرة قد تقاربت وتلاحقت لأنها تحمل طائرا مبيض الجناح . ورأى هذه الطيور تقوم بعملية نديك لبعضلات الطائر . . فهى تشد ريشه بمنقارها . . ثم ترخى هذا الريش مرة

بعد مرة .. ثم تبلل جراحه بريقتها .. يوما بعد يوم .. حتى تمكن الطائر من الارتفاع في الجو .. ولما لم يستطع أن يطير ، عادت نحلته على أجنحتها وركبت الهواء !

ويروى الفيلسوف مونتني أن هناك حيوانات لها فكاه الانسان . ولها خبئه أيضا . ولكن الانسان قد تفوق على الحيوان بخياله وقدرته على الإبداع ..

والفضل الوحيد للفيلسوف الفرنسي مونتني هو أنه لفت العيون والانتكار الى الحيوان والى الانسان .. والى تقريب المسألة بين الاثنين .

وأهم من ذلك يقول مونتني : كل ما عملته هو اننى سحبت الانسان من أنفه ووضعته في أنفاس الحيوان وتركته هناك . ثم نظرت الى الناس جميعا لاقول لهم : تعالوا نختبر فكاهنا جميعا : أين هو الانسان وأين هو الحيوان !

ومونتني هو أول من وضع أسس « علم النفس الحيوانى » أو علم نفس الحيوان .

وكثير من أفكار الفيلسوف الفرنسي مونتني ليست جديدة ولكنه استطاع بسخريته الشديدة ونكاته الحاد أن يضعها في عبارة جميلة .

ولكن هل للحيوان « نفس » كالتى للانسان ؟ هل الانسان فقط

هو الذى له نفس وله روح .. أى أن الحيوان بلا نفس ولا روح
وانما مجرد حياة : أن يولد ويكبر ثم يموت دون أن يدري من هذه
الدنيا شيئا ؟

مفكرون كثيرون قالوا : الحيوان ليس له نفس .. الانسان فقط
هو الذى له نفس عاقلة . انه يتكلم . يكتب . يتخيل . أما الحيوان
فليس له نفس . وإذا ضربته على رأسه لمن يقول : آه .. وما دام
لم يتوجع هكذا فليس له احساس !

وهناك فرق كبير جدا بين كلب يقف أمامك يلعب بذيله يريد منك
تذعة لحم ، وبين طفل ينظر اليك يريد نفس الشيء .. الطفل فقط
هو الذى يعرف معنى اللحم والفرق بين اللحم والعظم !

وجاء فيلسوف المانى كبير اسمه لايبنس يقول : لا فرق بين الشاعر
والحمار .. كل واحد منهما جسمه مكون من ذرات . هذه الذرات
هى بذور الحياة نفسها . فالانسان هو هذه الأشياء الصغيرة .
والحيوان كذلك . ولكن ذرات الانسان أو « بذور حياة » الانسان
أحسن أو اعقل من (بذور حياة) الحيوان .. ولكن كل انسان
وحيوان مكون من بذور الحياة أو ذرات الحياة . أو من الحياة
البفرية أو الحياة الذرية .

ولما ظهر الميكروسكوب ونظرنا الى الخلية الحية الميتة .. أو
الحيوان المتوى للانسان والحيوان كانت النتيجة واحدة .. فتحت
الميكروسكوب توجد حياة تروح وتجيء هذه الأشياء الصغيرة الحية

هى « فتافيت الحياة » وكل شىء فى الدنيا يبدأ من هنا .. ولا فرق بين الخلية لانسان أو حيوان أو نبات .. فالكل واحد . والله اراد أن يكون كل شىء واحدا . هذا الكل الواحد دليل على قدرة الله .. فالكل أمام الله صغير جدا .. فالانسان ليس أكبر من الحيوان ، والحيوان ليس ارفع من النبات .. الكل ليس الا كلمات أو مفردات فى قاموس الكون الأعظم من تأليف الله جل جلاله !

ومن ستة قرون فى أوروبا وصفوا الحيوان بأنه آلة .. مجرد تكوينات فوق بعضها البعض تروح وتجىء .. انظر الى الكلب .. انه ظلك .. يمشى وراعى ولا يفكر فى هذا الذى يفعله .. والقطة .. والحيوانات المفترسة تراك فتهرب .. أو تراك فتتهجم عليك دون أن تقدر أن كان الذى فى يدك عصا أو مخفج .. انها آلات مندفعة .. فلا عقل لها !

وأصبحت كلمة « الآلة » صفة للحيوان ، واهانة للإنسان طبعاً . حتى تقدمت صناعة الآلات فى القرن الثامن عشر .. وأصبحت الآلات دقيقة ومعقدة . وقائمة على كثير من النظريات الهندسية . هنا فقط أصبحت كلمة الآلة شرفاً للإنسان اذا وصفناه بها . بل الانسان يتمنى لو كان آلة دقيقة مضبوطة . تعمل بأنتقان ولا تحابى احدا . وأصبح المجتمع كله جهازاً ضخماً ، أو يجب أن يكون كذلك .. ولذلك لم يعد الحيوان آلة . ولم يصبح الانسان آلة ، وإنما هو يحلم بان يكون فى استمرارها ونزاهتها !

وكانت فلسفة القرن الثامن عشر رداً عميقاً عملياً على فلسفة رجل فرنسى اسمه « لا مبرى » . هذا الرجل يقول ان الانسان

والحيوان كليهما آلة . وأنه لا فرقيين انسان وحيوان . وإنما الحيوان كان من الممكن أن يكون انسانا لو أعطى الفرصة . . تماما كما أن الخادم كان من الممكن أن يكون السيد ، وأن يكون السيد خادما لو تغيرت الظروف . إذن : أعطوا الحيوان الفرصة لكي يكون انسانا ايها الناس !

ويقول لامترى أيضا : القرد : مثلا ما الذى ينقصها ؟ الكلام !
لو روضناها لو دريناها لقالت كثيرا كالانسان !

ويقول أيضا : أن هناك أنواعا مختلفة من الحشرات اذا حطمتها دبت الحياة في كل جزء من أجزائها . . الدودة تقسمها نصفين . . كل نصف يتحرك وكأنك لم تفعل شيئا . . ولكن الانسان اذا قطعت يده أو ساقه . . ماتت اليد والساق . . واذا انكسر رأسه أو نزعتم قلبه مات . . ومعنى ذلك أن حياة الانسان أضيق نطاقا . . وأنه أسهل كسرا وموتا من أحقر الحشرات .

والذى قاله هذا المفكر الفرنسى ليس دقيقا . ولكنه أثار الكنيسة وأغضب المجتمع السياسى فى فرنسا واستدماه الامبراطور الالمانى فريدريش الاول وطلب اليه أن يبتى بعيدا عن الغضب الفرنسى على كل المستويات . والمفكر لامترى لا يعرف أن عددا كبيرا من العلماء حاول يائسا أن يعلم القرد كيف تنطق ، فلم يفلحوا . فالقرد عاجزة تماما عن الكلام .

ثم أن ما تحتاجه الدودة من مراكز عصبية بسيطة يجعلها تتحرك

يمينا وشمالا بنصلها أو ريعها .. ولكن الانسان جهاز شديد التطور
وشديد التعقيد .

وكانت وفاة هذا الفيلسوف نكتة ضحكت لها أوروبا وشمنت فيها
الكنيسة وقتا طويلا . أن وفاته تذكرنا بوفاة الخديو المصرى
اسماعيل فقد جلس هذا الكاتب مع بعض اصديقاته . وكانت أمامه
فطيرة محشوة بالفتحاح وزجاجة من الشمبانيا . وكان يملأ فمه من
الشمبانيا وتراهن مع اصديقاته انه يستطيع أن يدخل الفطيرة في
فمه دون أن تسيل قطرة شمباتيا من بين شفثيه .. وفعلها مرة وفى
المرة الثانية ، مات مختنقا اما الخديو اسماعيل فكان يضع زجاجتين
من الشمبانيا في فمه وقد استلقى على ظهره وجعل يفرغ الزجاجتين
في وقت واحد — ومات هو أيضا !

ولكن الشعور العام في أوروبا في العصور الحديثة : أن الحيوان
أكثر نبلا من الانسان — منتهى اليأس من الانسان !

ولم يكن الفيلسوف الالماني المتشائم شوبنهاور مبالغا عندما فكر
قبل أن يموت بقليل أن يلقي بأمواله في البحر ولما سئل عن ذلك
قال : ان احدا لا يستحقها من بعدى !

ولما سئل مرة أخرى : ولا حتى كلبك !

فنعض واقفا : أنا الكلب حقيقة . فقد نسيت هذا الذى اخلص
لى في كل الظروف !

ثم أوصى بأمواله كلها الى كلبه !

والفيلسوف الالماني نيتشه كان يحب الفناة اليهودية سالومي وكان
ينافسه في حبها العالم اليهودي فرويد والشاعر الالماني ريلكه . .
ولم يتفق الثلاثة على شيء لانهم جميعا مختلفون تماما . . واخيرا
قرروا ان يقيموا لها حفلة تكريم . . فأتوا بعربة واركبوها العربة
واعطوها كراباجا . . ثم سحبوا العربة . . كأنهم خيول او حمير لها !

وعندما ذهب الفيلسوف نيتشه الى مدينة ميلانو الايطالية رأى في
ميدانها العام حصانا جميلا . . فراح يجرى وراءه ويصرخ ويعانقه :
يا ابنل كاتن يمشى على اربع او على اثنتين !



هو يسقط والريش يطي!

« لو كان يقول أى شيء » — ولم يقل
حيوان الكاتجرو أى شيء . وإنما ظل الكابتن
كوك الذى اكتشف استراليا وعشرات الجزر
يتأمل هذا الحيوان العجيب الذى ليس له نظير في
القارات الأربع . وكتب في مذكراته يقول : له
راس غزال وله ذيل طويل واذا مشى فانه يقفز
كالضفدعة .

ثم مضى الكابتن كوك في وصف هذا الحيوان . كيف يأكل وكيف
يشرب . ورغم قدرته الهائلة على الملاحظة فانه لم يتنبه الى أن
هذا الحيوان يحمل صفاره في جيب في بطنه . ولم يعرف ان هذا
الحيوان الذى يصل طوله الى عشرة اقدام عندما يضع صفاره فان
الواحد منها يكون طوله بوصة فقط !

ولم يكن هذا هو الحيوان الوحيد في استراليا او القارة الجديدة ،
وانما هناك حيوانات أخرى انقرضت مثل هذا الحيوان الذى كان
بصيده البدائيون لياكلوا لحمه ويصيده الأوروبيون ليسلخوا

جلده .. والبداثيون هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم . ويقال أن سبب هذه التسمية أن هذا الحيوان عندما يولد فانه ينطق كلمة : كالجج .. وعندما يموت فأخر كلماته كلمة : رو ..

ومعنى ذلك أن البداثيين يريدون أن يقولوا أن الحيوان يولد ليموت! — هذه العبارة قالها الفلاسفة الوجوديون في خمسينات هذا القرن وصنعنا لهم طويلا لاكتشافهم هذه الحقيقة المؤلمة !

وعندما زرت حديقة الحيوانات في مدينة سيدنى باستراليا لم أجد إلا ثلاثة من الكانجرو . وسألت ان كان هذا الحيوان قد أصبح نائرا . فكان الرد نعم . حتى أن جزيرة في مخمل خليج سسالت لمنسنت اسمها « جزيرة الكانجرو » أصبح الآن اسمها : جزيرة الكانجرو سابقا .. أو جزيرة الـ .. حيوان الذي كان هنا !



وأهم ما جاء في مذكرات الكابتن جيمس كوك في سنة ١٧٧١ هذه العبارة : انشغلنا جدا بهذه الحيوانات الغريبة والطيسور العجيبة ومن أين جاءت وكيف جاءت .. ولكن لم يتسع وقتي لهم أشياء كثيرة فمن الأسماء التي لاحظتها أن حيوان الكانجرو هذا إذا مرض امتنع عن الطعام ، وأنزوى وحده وأبعد صفاره عنه .. وأحبابنا تجيء انكأ أخريات وتتولى كل واحدة اطعام هذه الصغار .. وإذا أحس هذا الحيوان بأنه سوف يموت ، فانه يحفر الأرض بقدميه الاماميتين .. وكلما كانت الحفرة عميقة كان اقترابه من الموت .. لماذا مات فانه يتمرغ في حفرة .. ولا يسكن تملها الا وقد

انهال عليه التراب كله . . كأنه حفر قبراً ثم دفن نفسه فيه تماما .

والكابتن كوك يكرر ما شغل العلماء والاطباء من الوف السنين .
فهم جميعا كانوا ينظرون الى الحيوان بهيام ويقارنون بينه وبين
الانسان . وعندما يريدون أن يعرفوا الانسان فيفتحون بطن الحيوان .
يريدون أن يعرفوا جلد الانسان فيسلخوا جلد الحيوان . يريدون أن
يعرفوا ما الذى يضحخه ثلب الانسان فيفتحوا قلب الحيوان . . ان
العالم الفرنسى هارفى عندما اهتدى الى الدورة الدموية كان ذلك عن
طريق تأملاته وتشريحاته للحيوانات . . والعالم الكبير المالبجى عرف
الذئفس عند الحيوان عندما أخذ يكتم انفاس الحيوان . بل انه قد
اهتدى الى الكريات الحمراء عندما رأى ذلك فى حيوان القنفذ . وكان
يظن أن هذه الكريات هى أنواع من الدهن . . ثم انه نقل دم الكلاب
بعضها الى بعض ، قبل أن ينقل دم الاغنام الى الانسان .

وعندما اهتدى الانسان فى أوائل القرن الثامن عشر الى الجهاز
العصبى كان ذلك عن طريق تعذيب الحيوانات بالابر والنار ،
ليلا ونهار . . هنا أدرك الأطباء والعلماء ، أن الاجهزة التى تحرك
الانسان هى نفسها التى تحرك الحيوان . . وان لجميع اعصابا
وان هذه الاعصاب تمسك كل اعضائه وعضلاته . . وتؤثر على
وظائفه — يكفى ان ننظر الى هذه الحيوانات !

* * *

ولا شىء يدل على طموح الانسان ورغبته المستمرة فى العلو
والتخلص من متاعب المسافات بين الناس وبين البلاد ، مثل
عجابه بالطيور وخفتها ورشاقتها فى الحركة وركوب الهواء . . كل

النقوش القديمة تدل على هذا الإعجاب بالصقور والنسور . ولكن الإنسان نفسه لم يعجب بالذباب مع أنه اعجوبة الحشرات . لان الذباب مرتبط في ذهنه بالغذارة وبأنه يضايقه عند النوم والاكل . وإذا نظرنا الى تكوين الذبابة لوجدنا انه يفوق في اعجازه تكوين النسر . . ان جناح الذبابة تحفة هندسية حيوية . ان سرعة الذبابة في الطيران والانقضاض تذهل أعظم المهندسين . فسرعتها لا تتناسب مع طول الاجنحة ومع جسمها . ولكن أحدا لم يلتفت الى ذبابة . وإنما كان الإنسان مشغولا بالطيران . . وعند الاغريق ، وفي أساطيرهم الرائعة حكاية نيدالوس . . كان فنانا قادرا على صناعة الكثير من الادوات التي استخدمها الفلاح والطبيب والمهندس . وهو الذى اخترع شراع السفن . هو أيضا الذى اخترع الدفة والسفارة والمصيدة . وكان عبقرية عظيمة . يكره أن يناهسه أحد . ويبدو أن له ابن أخت سوف يكون أعظم ، فالتقى به من النافذة ومات الشاب قتلا . وهرب العبقرى الشرير الى احدى الجزر . وصنع لاحدى الملكات سجنا لا يمكن أن يهرب منه احد ، لكثرة سراديبه . ولكنها لم تأمن اليه . وخشيب أن يهرب ويصنع سجنا مماثلا في جزيرة أخرى وللملكة أخرى . فحبسته في هذا السجن . واستطاع ان يصنع لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس جناحين من الريش الطويل واللصق الريش بالشمع . وهرب الاب وابنه . . ويقال ان ابنه ارتفع في السماء فأذابت الشمس الشمع من جناحيه وسقط الابن ميتا . . أما الاب فنزل في احدى الجزر . ويقال أنهم وجدوه ميتا ووجدوا حبالا طويلة في عنقه . . ووجدوا في هذه الحبال عشرات من النسور . . يبدو انه كان يريد هذه النسور أن تحمله . . ان تطير به الى مكان بعيد . ولكن النسور حملته بعض الوقت وشدته جاذبية الارض ، فمات وماتت النسور !

وقد حاول أحد علماء الاندلس واسمه عباس بن فرناس أن يطير

هو أيضا . وكانت محاولته في القرن التاسع الميلادي . وغطى جسمه بالريش وألقى بنفسه من جبل . . وحمله الريش قليلا . . ثم سقط ميتا وارتفع الريش في الهواء . .

ولم تبت فكرة الطيران عند الانسان وانها تجددت في كل العصور . . على القرن الثامن عشر في فرنسا ، حاول كثيرون ان يستخدموا بالونات الورق في الطيران . ولم يفضلوا على الورق بالون الحرير . وارتفع الورق وهبط على مدى قريب . وفي سنة ١٧٨٣ ارتفع من باريس بالون ورق . وهبط البالون بعد مسافة عشرين كيلو مترا . ولم يكد الملاحون يرون البالون الطائر ، حتى ظنوا ان القمر نفسه قد سقط من السماء . واقتربوا منه . ومزقوه . وربطوا البالون المحطم في ذيل أحد الخيول ، وراحوا ينقلونه بين القرى ، احتفالا بالنصر . فأصدرت الحكومة الفرنسية بيانا تصف فيه هذه التجربة وتؤكد اهميتها للانسانية . وانه لا خوف على أحد ولا ضرر له في ماله وماله .

وفي ١٩ سبتمبر ١٧٨٣ ارتفع بالون أكبر ومن الورق أيضا . وكان صاحب البالون أكثر خيالا وأغلب طموحا . فعلق في البالون صندوقا من الخشب . وفي الصندوق حروف ونجاجة وبطة . وارتفع البالون . ومضى تحمله الريح بعيدا . ثم هبط . ونزلت الحيوانات منه سالمة . . وبعد ذلك بسنوات ركب البالون بعض المغامرين وعبروا به المائس . واتجه الانسان الى أساليب وحيل جديدة في صناعة الاجنحة الهندسية لكي تطير به من مكان الى مكان أبعد وأسرع من الطيور نفسها ، ويكفي ان ننظر الى ماركات شركات الطيران العالمية لنجد أن هذه الماركات ليست الا مبرارة رائعة في تصوير معنى الطيران والطيور . فكل هذه الماركات تشير الى خفة الحركة ورشاققتها

وسلامتها هبوطا من الجو وصعودا اليه .. كأنها طيور آمنة مطمئنة
لا خوف عليها ، ولا خوف منها على أحد !

لماعجاب بالطيور وتقليدها ومحاولة فهمها ليتمكن فهم الانسان
هو هدف العلماء من الوف السنين . وليست الطيور وحدها التي
يريد الانسان أن يتخذها وسيلة لفهم الانسان . وانما كل الحيوانات .
ومن أقدم العصور كان الملوك يهدون اطباءهم أناسا مجرمين
ليجربوا فيهم المشراط والسكاكين . فالملك كان يفتح السجون للطبيب
الخاص ليختار واحدا من هؤلاء النزلاء ليشرح جثته ويعرف ما هي
هذه الحياة .. ما القلب ما الكبد ما الامعاء .. ما المعدة .. وكان
يحدث ذلك في مصر الفرعونية وفي مارس القديمة ..

وكان رجال الدين في كل العصور يحرمون قتل الحيوان بقصد
البحث العلمى . وانما يرون القتل للصيد او للأكل ممكنا .. أما
اسالة دم الحيوان وتقطيع اطرافه ، مهما كان الهدف نبيلافشىء
حرام . ولعل الفنان العظيم ليوناردو دافنشى قد هرب الى روما
لهذا السبب . فقد كان يريد أن يشرح جثة خنزير أو بقرة ليعرف
تكوين السيقان والرأس . وكان يعلم أن رجال الدين يرغبون هذه
النظرة العلمية الواقعية للاشياء . ولا يرون فيها الا خروجا على
الدين ..

وعندما انتشر القتل بالسم كان الملوك ، وخصوصا لويس الرابع
عشر ، يطلبون الى الاطباء أن يذوقوا الطعام قبلهم .. وأحيانا يموت
الاطباء ، ثم لجأ الملوك الى استخدام المجرمين واللصوص الذين
يعتقلونهم في مكان خاص بالقرب من القصور .. وأخيرا اهتدى

الاطباء الى وسيلة لاتقاذ ارواحهم هم ، ماتوا بالحيوانات يطعمونها
ما يقدمونه للملك . . وكان السم أحيانا شديدا فيتلوى الحيوان
تحت قدمى الملك . . فيرفض الملك الطعام أياما من شدة الخوف . .

* * *

ومن حوالى مائة سنة فقط ، ظهر شعور انسانى يغير أوروبا
كلها ويدعو الى الرفق بالحيوان والرحمة به . فهو أيضا يتألم ويتعذب
مثلنا . والذي برحم الانسان ، هو نفسه الذى يرحم الحيوان .
والذى يقسو على الحيوان هو نفسه الذى يعذب الانسان . ولذلك
يجب أن نتواصى بالرحمة بهذه المخلوقات لتكون رحماء بأنفسنا . .
والاطفال يجب أن نعلمهم حب الحيوانات ليحبوا بعضهم بعضا .

بل أننا رأينا الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يدعو الى أن
نعلم الاطفال الرحمة بالحيوان حتى إذا كبروا كرهوا القسوة على
أحد من الناس . .

وقبل روسو بعشرين قرنا اقام الملك الهندى اشوكا أول مستشفى
للحيوانات المريضة ، وجعل علاجها اجباريا . وكان يقول : لا أصدق
أن أبا يحب أطفاله ، إذا رأى كلبا مريضا ولم يساعده بلقمة أو قليل
من اللبن . . لا أصدق أن الأم لا تأكل بنيةا ، إذا رأت هرة تلد ثم
القت عليها بالتراب ، لأنها تتشاعم من منظر الحيوان وهو يلد !

وفى أيام الحروب كانت تقام الحظائر للخيول . ولكن إذا مرض
حصان قتلوه . حتى لا تنتقل عدواه الى بقية الخيول !

حتى كانت سنة ١٧٤١ . في هذا العام أقام رجل فرنسي اسمه كلود بوجيلا مدرسة يعلم الناس فيها كيف يعالجون الحيوانات . مدرسة للطب البيطرى . صحيح كانت هناك محاولات مماثلة وضيقة النطاق في هولندا أو سويسرا أو بروسيا . ولكن هذه المدرسة الفرنسية اكتسبت شهرة عالمية . وجاءها طلاب الطب والعلاج من كل مكان . وكانت هذه المدرسة تنصح الطالب : بأن يكون انسانا في معاملة الحيوان .. وان يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا الحيوان ، لاسباب لا نعرفها ، عاجز عن الكلام .. أى عاجز عن الشكوى من العطش والجوع أو الألم .. وان هذه الحيوانات تحب من يحبها — والكلب اكبر دليل على ذلك . وأن في هذه الحيوانات شهامة وتبلا — الحصان اقوى دليل على ذلك ..

وظهر من هذه المدرسة عدد كبير من الاطباء لعلاج الحيوانات التى تنفع الانسان : الحيوانات التى ناكل لحبها أو نبيع جلدها أو تجر العربات أو تحرس له العربة والحصان والبيت ..

ولا تزال في العالم عشرات الالوف من مستشفيات الحيوان .. والوف المجلات للحيوان .. ومئات الشركات تعد الطعام الخاص للحيوان والطيور . وعشرات من اصحاب الملايين يتركون ثرواتهم للحيوان — حبا في الحيوان ، أو كرها في الانسان !

ويوم ارتفعت الكلبة لاىكا في احدى سفن الفضاء تدور حول العالم نارت جمعيات الرفق بالحيوان . تقول : وحشية .. جريمة ..

مع ان في المعامل في كل مكان الوف الحيوانات تموت فداء للانسان . ولكن هذه القلوب الرحيمة بالكلبة لاىكا نسيت الانجاز العلمى

المعظيم الذي رفع الكلب تمهيدا لارتفاع عشرات من رواد الفضاء ..
مئات الكلبة لايتكا ودفنت في قبر من نوع غريب ، قبر يدور حول
الناس وعلى ارتفاع مئات الكيلو مترات من الارض وبسرعة عشرات
الآلاف من الاميال في الساعة ..

**وكانت هذه الجنازة المجيبة التي اشترك فيها كل سكان الارض :
جنازة هارة والميت كلب !**



لوتام الزين قليلاً تذكرتك المسحفة!

✳ في القرن الثامن عشر تاكد لدى الناس فك
المعنى الذي جاء في الكتاب المقدس : ان الناس
ولدوا لينتموا على آتهم ولدوا .. فقد كانت
الحياة قاسية : ارهاق ومرض وموت بعد ذلك.
ولا يتسع وقت الانسان ليسال نفسه : صحيح
ما معنى هذا كله ؟ ماذا اخذت ؟ ماذا اعطيت ؟
ما الذي يتبقى منى لاحد من الناس . والجواب
عادة : لا شيء ! كان الناس ولدوا ليكونوا بعد
ذلك : لا شيء ، كما كانوا قبل ان يولدوا — انها
نظرة مثل الحياة ومثل مداخل المصانع الجديدة:
سوداء ! ..

وفي سنة ١٣٨٤ أعلن البابا كلينس السادس أن عدد الاوروبيين
الذين ابادهم « الموت الاسود » ذلك المرض اللعين قد بلغ ٤٢ مليوناً!
ولم يكن المرض هو الحاصد الوحيد للأرواح . لانه اذا لم يكن
مرض اخترع الانسان الحروب . واذا لم تكن حروب اخترع الانسان

الكراهية التي تؤدي الى القتل — اثنان من اولاد آدم قد فعلا ذلك
وكان عدد سكان الأرض أيامها ستة أشخاص !

كما أن حرب المائة عام هدت حيل فرنسا .. وحرب الثلاثين عاما
مؤقت قلب ألمانيا ..

وفي انجلترا جاءت حرب الخمسين عاما لمطاحت بالكثير من
الرجال والشباب ..

ولم تفت هذه الظاهرة عددا من المؤرخين ، الذين وضعوا سائنا
على ساق وقلوا : ان هذا يحدث كل عشرين سنوات ، ويجب أن نتوقع
ذلك ، فاننساء يلدن والرجال يحصدون ماوضعتة النساء .. وبذلك
يظل عدد سكان العالم رقما ثابتا . انها حكمة السماء منذ نزل ثمانية
من البشر من سفينة نوح فوق جبل أرارات !

ولكن ما هذا الذى يجرى بين الناس .. انهم يتزايدون رغم ذلك ،
والطعام لا يكفيهم ، ولا بد أن يجد الانسان وسيلة ليكون هناك طعام
من النباتات ومن الحيوانات .. ليكون هناك كساء وغطاء
ومشروبات ومساكن ليوالى الانسان زيادة عدده ورفاهيته ، ويموت
من ابنائه اقل عدد ممكن .

وفي احدى القصص التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر يقول
الكاتب : لم نعرف بالضبط كيف يجيء هؤلاء الاطفال ، أن الرجال
مادة يخطنون في عدد اولادهم الشرعيين وغير الشرعيين .. ولكن

الإمهات لا يخطئن ، ويستحيل عليهن ذلك . فالأم تحمل طفلها تسعة شهور ، ولكن الرجل يحمل ذلك الطفل ساعة أو أقل من ذلك كثيرا ، فالرجل لا يدري به ولكن الأم تعرف ذلك جيدا ولن يتحمس الرجال لان يكون عندهم أولاد أقل . . ولكنها المرأة هي التي يجب أن تفعل شيئا — ن نساء الاغريق ضربن أزواجهن لان الرجال يخطون الفراش دون أن يضعوا في شعورهم شيئا من العطر ، أو على أجسادهم شيئا من الزيت الذي يكسب الرجل هوية وقدرة على امتاع المرأة . . فلتفعل المرأة شيئا .

والمعنى هو أن الكاتب يطلب الى المرأة أن ترفس الرجل حتى لا يقربها وحتى لا يزيد عدد الناس في كل مكان . . ومن هنا أن تفعل ذلك فهي التي تتعب وهي التي تتعذب . أما الرجال فلا يشعرون بشيء . . وهذه القصة الانجليزية تذكرنا بموقف قديم قبل ذلك بألف سنة . عندما اختلف أبو الاسود الدؤلى مع زوجته على الطلاق وحضانة الأطنال قالت الزوجة أمام القاضي : أنا تعبت أنا حملت أطفالى . أنا أولى بهم . . قال الزوج : أنا حملت الطفل قبل أن تحمليه أنت . قالت الزوجة : أنت حملته في ظهرك خفيئا ، وأنا حملته في بطنى ثقيلًا .

وحكم القاضى للزوجة بحضانة الأطنال !

واستطاع تسييس انجليزى أن يحدد بالضبط مشكلة تزايد السكان في العالم انه التسييس مالثوس . وكان ذلك سنة ١٧٩٨ عندما أصدر كتابا بلا امضاء . . انه يقول : ان الطعام في العالم يتزايد بصورة حسابية : ١ — ٢ — ٣ — ٤ بينما يتزايد عدد سكان العالم بصورة هندسية ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ وهكذا .

ومعنى ذلك أن الطعام لن يكفى الإنسان ، وان الإنسان يعيش ويكبر ليهوت جوعا ، الا اذا توقف الإنسان عن النمو ، أو الا اذا ضاعف طعامه وشرابه بنفس السرعة ، ويبدو أن هذا غير ممكن فالطوب من الإنسان أن يتوقف عن التكاثر .

وهذا القسيس يقول : وليس من مصلحة الإنسان أن يوفر الطعام الكثير لانه كلما زاد الطعام تزايد عدد الناس فكان الطعام يؤدي الى النتيجة غير المطلوبة . . فالأفضل هو الا نزيد الطعام حتى يموت الناس من الجوع . ويكون الجوع هو أول منظم للنسل ومحدد له ، أو يبحث الناس عن طريقة لانقاص عددهم .

يقول القسيس مالثوس : صحيح أن الأرنب والسلحفاة لو دخلا في سباق فمن المؤكد أن الأرنب هو الذى سوف يصل الى الهدف أسرع . لا شك فى ذلك ولكن لو طلبنا من الأرنب أن ينام قليلا فى الطريق فان السلحفاة سوف تصل قبل الأرنب ، أو تصل معه فى وقت واحد !

وسارعت الهيئات الدينية بتفسيرات جديدة لتحديد النسل ، فالإنسان حيوان تحكمه الغريزة ، ولذلك لا يستطيع أن يحدد عدد صغاره . ولكن الإنسان يتصرف بالعقل ولذلك يجب أن يستخدم عقله ، وقال القساوسة فى أوروبا فى ذلك الوقت : الطهارة يارجال . . الطهارة . فالذى يعف عن الجنس هو الذى يجد الرغيف لمجاء العفة أن تجد الطعام والشراب . . والنزوات عقابها الجوع !

أما رجال الصناعات وأصحاب رعوس الأموال فقد انزعجوا ، لان

تحديد النسل معناه أن يصبح عدد العمال أقل . لماذا قل عددهم
ارتفعت أجورهم ، وإذا ارتفعت أجورهم نقص ما يكسبه أصحاب
المصانع والتاجر . . ولذلك وقفوا ضد القسيس مالثوس الذي
يدعو الى تخریب بيوت المال في أوروبا كلها !

وقال السياسيون المحافظون : بل يجب أن يحدد الناس نسلهم،
والا زاد عدد الجياع ، لماذا زاد عددهم قاموا بثورة كثورة فرنسا،
وأطاحوا بالملكية في إنجلترا . وتلبوا الأوضاع واختلت الموازين
والقيم الاجتماعية . . ولذلك منظرية القسيس مالثوس هي أعظم
ما اكتشف الانسان في كل العصور !

وأخذت الجامعات تلتقى عليه نياشينها العلمية ، وتطلب اليه أن
يحاضر فيها ، فهو الذي وضع أصابعه على داء البشرية ، وأقوى
قوى التاريخ الانساني !

ولو نظرنا الى عالم الحيوان لوجدنا شسينا مخيفا ، منى عالم
الاسماك مثلا : نجد أن انثى سمك الرنجة تضع أربعين ألف بيضة
بينما تضع سمك موسى تسعة ملايين بيضة والسلامون تضع
ثمانية وعشرين مليون بيضة . . وسرطان البحر الأمريكى يضع
مائة مليون بيضة ، وهذا يتكرر خمس مرات في السنة .

وفي عالم الحشرات : نجد أن ملكة النحل تضع في السنوات الثلاث
الاولى خمسة ملايين بيضة .

أما الضفدعة فانها تلحق ٥٤ ألف مليون بيضة في السنوات الثلاث

الاولى من حياتها ، وربما كان هذا هو السر في أن عدد الضفادع في العالم يتوازن دائما — هناك الكثير في كل مكان في أى وقت !

وهناك مسافة كبيرة جدا بين عدد البيض وعدد البيض الذى تم اخصابه .. وهذه المسافة تصبح أوضح وأكبر في الانسان ، فعدد الحيوانات المنوية عند الرجل طول حياته تقدر بالوف الملايين وعدد البويضات عند المرأة مئآت الالوف . . ولكن لا بد من حيوان واحد من الرجل لبويضة واحدة من المرأة ليكون هناك طفل .

ولان المرأة لاتقوى على حمل أكثر من طفل فان هذه الحيوانات المنوية والبويضات لا ضرورة لها . . وفي عالم الحيوان والحشرات نجد أن الذكر ليست له أهميته . فماذا قتل أو أكلته الانثى فان الطبيعة لاتخسر شيئا بالمرّة ، بل ان الملايين من البويضات المخصبة تحل محله بسرعة ، فالذكر ليس شيئا هاما لكى تستمر الحياة .

ولو كانت كل الحيوانات المنوية عند الرجل تلتحم بكل بويضات المرأة لكان عدد سكان الأرض ضعف هذا العدد بالوف الملايين من المرات . ولكن انثى الرجل هى التى تحدد النسل . ومن المعروف ان المرأة لاتستطيع أن تحمّل أكثر من عشرين مرة في العمر كله . . وهذه هى الحالة النادرة ، ولكنها عادة لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة الاقلبلا . . وهذا ينطبق أيضا على كل الحيوانات الاخرى التى يأكلها الانسان !

والاغنياء وحدهم هم الذين انشققوا كثيراً بعدد أطفالهم وبالجوع .
فهم لا يريدون لأطفالهم أن يجوعوا . أما الفقراء فإن الجوع
لا يشغلهم . لأنهم الجوع نفسه ، والفقراء كلما اشند بهم الجوع ،
احسوا باقتراب الموت ، وأصيبوا بحالة فهم جنسى ، فيزداد عددهم
.. لهذا زاد عدد الفقراء الذين ازدادوا فقرا !

ولابد أن ينشغل الناس عموماً بالبحث عن موارد للطعام ، لتوسيع
رقعة الأرض المزروعة عشياً ، أو بالهجرة الى بلاد أخرى ،
الاييرلنديون هربوا من أرضهم القاحلة الى أمريكا ، الانجليز رفضوا
أن يتركوا أرضهم ، ولذلك زاد عددهم وزادت مصانعهم ، ولكن حدث
شيء غريب : زادت الاتمشة أمام الناس ، فكانوا يجدون الكساء
ولا يجدون الغذاء وقالوا عن أنفسهم : أننا وجدنا الشيء الذى يدق
الجلد ، ولا يدق المعدة !

ولكن الانجليز وجدوا الأيدي الكافية لإدارة مصانعهم ، وكانت
هذه المصانع للنسيج ، ولم يتوافر لديهم نفس هذا العدد من مصانع
الطعام .

بدأ الانجليز — مثلاً — يستوردون طعامهم من الخارج ، أما
ملايسهم ، فمن الداخل .

وبعض أصحاب الأغنام أرسلوها الى الأرجنتين حيث الجو أفضل
وإطعام أوفر ، وبعضهم أرسل مئات الأغنام التى أصبحت مئات
الالوف ، الى استراليا . .

وكانت المشكلة هى نقل هذه الحيوانات بعد أن تعبت وسمنت
الى أوروبا ، ولكن أكثر هذه الأغنام كان يموت فى الطريق وكانت
أمراض الحيوانات تنفشى بسرعة — وتهلك سفناً بكاملها .

وفي ذلك الوقت اخترع رجل استرالى سفينة تنقل لحوم الأغنام والابقار الى أوروبا ، وكانت السفينة تقوم بتبريد اللحوم ، وكان ذلك انقلابا فى صناعة التغذية ولكن الناس فى أوروبا لم يستسيغوا اللحوم الباردة .. وكانت هذه اللحوم طعام الفقراء . أما الأثنياء فيفضلون اللحوم الحية .. يرونها ويذبحونها ..

ولكن رجلا فرنسيا اسمه تيبسه سنة ١٨٧٧ اخترع « ثلاجة » وكانت الثلاجة على شكل سفينة ، فهذه السفينة تنقل اللحوم مجمدة من الأرجنتين الى فرنسا وانجلترا . وكانت رحلة السفينة تستغرق مائة يوم ، وتظل اللحوم مجمدة سليمة . وكان ذلك هو أعظم اختراع انقذ أوروبا كلها من الجوع . وانتشرت الثلاجات العائمة فى الموانئ الأوروبية والموانئ الأمريكية ، وانحلت مشكلة اللحوم الى حين وبقيت اللحوم المجمدة طعام الفقراء !

وإذا كانت الثلاجات قد أتخذت الفقراء فان الآلات الحديثة التى ظهرت فى ذلك الوقت قد خربت بيوت الفقراء ، والآلات البخارية التى استخدمت فى المواصلات وفى المصانع قد استغنت عن الأيدى العاملة ، وكان أصحاب المصانع حريصين على الآلات لأنها تخلص الأيدى العاملة وتوفر لهم المال ، وظل العداء قائما بين الآلات وبين الأيدى العاملة .. ولا يزال ..

وفي ذلك الوقت من أوائل القرن التاسع عشر ظهر سباق الخيل . وكان الانسان لا يريد أن يصدق أن العطار أسرع من الحصان ، ولذلك بدأ الانسان ينظم مسابقات الخيول ، وقبل تنظيم المسابقات كان يحرص على اقتناء أحسن سلالات الخيول . وأحسنها بالفعل تلك

التي جاءت من أصل عربي ، وهناك خيول أخرى مولدة : أضخم واثقل وأطول سيقانا وأضخم عنقا ورأسا ، ولكن أفضل الخيول جميعا هي العربية الرشيقة .

وفي الوقت الذي أخذت إنجلترا بلعبة سباق الخيول ، اتجهت إسبانيا الى مصارعة الثيران ، حتى ثيران أسبانيا هي الأخرى قد جاءت من الشرق . بعض هذه الثيران مصرى فرعونى .

والقرن التاسع عشر يعرف أسماء عدد من الخيول قد غيرت الحياة الاجتماعية ، فهناك الحصان الشهير « دارلى » الذي كسب ثلاثين سباقا وغاز بعشرين كأسا فضية ، ولم يسبقه حصان واحد . بل أن أبناءه من الخيول وهي معروفة الاسم ، قد بلغ عددها ٣٤٤ حصانا ، قد عادت الى أصحابها بمليون جنيه ! .

وأصبح من المؤلف جدا في أوروبا كتابة تاريخ حياة الحصان ، أصله ومن أين جاء ، وأولاده بالاسم ، وأماكنهم وأحجامهم ، والسباقات التي اشتركت فيها .

وفي إنجلترا تأسس نادى الجوكى سنة ١٧٥٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاما بدأ اللورد دربى السباق المشهور المعروف باسمه حتى الآن . . وكان هذا السباق متعة كبرى وفرصة دولية للتشرك أجهل وأقوى الخيول في السباق والمراهنه .

وربما كان نابليون بونابرت هو أول من اخترع فكرة ارض السباق، وأن تكون الأرض ناعمة وأن يكون الطريق أمام الحصان مبهداً . فقد أرسل له أخوه لوسيان خطابا يستأذنه في إقامة سباق العربات . ولكن نابليون اعترض على سباق العربات التي تجرها الخيول لأنها لعبة أفريقية قديمة ، وأن العربية تعوق الحركة وأن الأفریق كانوا

ينسأبتون بالعربآت لآتهم كآنآو آآربون من فوق العربآت وبهآ . .
آمآ على آيآم نآبليون فكآنآو آآربون من فوق ظهور الخيول ،
فالسبآق بالخيل هو منآسبة للتدريب على القتآل ولذلك . آمر
نآبليون بعمل آرض للسبآق وتسويتها وتغطيتها بالعشب فيتمكن
الحصآن من الإنطلاق ، وآذا سقط من فوقه الفآرس فلا تكون آصآبته
خطرآ !

وآنتشرت لعبة السبآق في أوروبآ كلها ، وآصبح الآغنيآ يتبآهون
بآن لديهم آحسن الخيول وآكرها عددآ وبآن لديهم آصطبلآت فخمة . .
وآذا كآن الآغنيآ قد آنشغلوا بتربية الخيول فآن آفقراء قد وجدوا
لهم لعبة آخرى : السيرك . . ففي السيرك تلعب الخيول وآحيوانآت
الآخرى . . . فالسيرك متعة آرخص ، وفي نفس الوقت فرصة لآن
يتفوق الفقراء على الآغنيآ بالبرآعة والصبر في مآآهة الآسود
وآنمور وركوب الخيول . . والتصفيق للآعبين المهرة : آى للفقراء
من أمآلهم . .

وعندمآ يتعب الفقراء من الفرآة على السيرك ، فآنهم يذهبون
آلى حديقة آحيوانآت ، ففبها آحيوانآت من كل نوع آآعت من آخر
الدنيا لتكون آآهزة لتسليتهم في آى وقت !

« وبعد ذلك يذهب النآس آلى بيوتهم سعدة بما رآوا ، وبآنهم
قد عوضوا مآ فآتهم من آمآلك الخيول ، بالنظر آليهم والآعآب
بآصآبها . . وينآمون في الليل ، ويولد الآطفآل في الصبآح » —
كآمآ يتول الكآتب الآيطآلى البرنو مورآفيا .

ففى آحدى قصص مورآفيا يآىء الرجل الذى يعد السكان
ويسأل : كم عدد الآطفآل عندكم ، فنتول الأم : عشرة .

ويقول موظف التعداد : تقولين عشرة ؟ .. ياه ! عشرة ؟
ويرد الزوج : نعم يا سيدي عشرة .. ليس عندنا راديو
ولا تليفزيون ، ولذلك فنحن ننام في ساعة مبكرة !
— معقول .. ويهضى الرجل يندق أبواب البيوت الأخرى عينه
على الباب والعين الأخرى على السطح ، ليرى ان كان عندهم
تليفزيون !
وفي نفس الوقت تتزايد الحشرات بالوف الملايين ويصرخ الانسان
من الجوع في آسيا وأفريقيا !



نظرية التطور ! د لا اعتبار بحيوان

كانت محاكمة العصر كله . فقد اجتمع العلماء
ورجال الدين وكثرت الراهبات يمسكن المناديل
ويثرن بها الى تلك القس الوسيم الرشيق الذي
جلس متحفزا ليدافع عن الدين عن كل سطر جاء
في الكتاب المقدس . عن ان الانسان الاول كان
اسمه آدم . وان البشرية كلها قد جاءت من
سلاطه . . وامام هذا القس واحد من العلماء
اسمه هكسلى جاء يدافع عن نظرية تقول ان
الحيوانات تتطور . . وربما كان الانسان اصله
قرد . وليس ذلك بعيدا فالتشابه شديد جدا
بينهما .

نخل العالم الكبير وجلس في مواجهة القس . فقال له القس
متسائلا مستكرا : اريد ان اعرف منك ان كان جدك لامك او لابيک
قردا ؟ . .

وضحك الحاضرون وهناؤا بعضهم البعض . ولكن العالم الكبير

قال له : يشرفنى أن يكون جدى من الناحيتين قردا .. ولا يشرفنى أن يكون واحدا مثلك يستخدم نكائه وعقله في مناقشة قضايا علمية لا يفهم فيها شيئا !

وانتهت المناقشة فجأة بانتصار العالم الكبير هكسلى . اى انتصار لمفلسفة دارون التى كانت قد هزت الفكر والحياة فى أوروبا كلها فى منتصف القرن التاسع عشر !

وعندما سمع دارون هذه المناظرة قال : كان من السهل جدا ان اموت لمجرد أن اتصور أن أحدا سوف يحاكمنى هكذا ..

فلم يكن دارون ذلك الرجل القوى القادر على المناقشة والمناورة . وإنما كان رجلا هزيلا مريضا .. فعندما سافر فى رحلته الشهيرة لمدة خمس سنوات الى أمريكا وأستراليا كان عمره ٢٢ عاما . وكان أضعف المسافرين . وكان يعمل فى هذه الباخرة العلمية باحثا فى الحيوانات والنباتات . ولم يكن أحد يتصور أن تشارلز دارون هذا من الممكن أن يكون شيئا هاما فى التاريخ . ولم يخطر على بال أحد أن دارون هو كولبوس الجديد .. فإذا كان كولبوس قد اكتشف قارتى أمريكا ، فإن دارون قد اكتشف قارات من المعلومات العجيبة فى تاريخ النباتات والحيوان والانسسان . بل أن كل العلماء راحوا يدرسون من بعده تاريخ الحجارة والتراب .. لأن كل شيء له تاريخ وكل شيء على الأرض قد تغير وتطور .. فالتطور هو قانون الأشياء كلها ، كما أنه قانون الحيوانات كلها كما قال دارون .

وفى هذه الرحلة التى غاب فيها دارون عن بلاده قد درس عينات

كثيرة جدا من النباتات والحيوانات .. واهتدى الى مجموعة من الأفكار .. ولكنه لم يجرؤ على أن يعلنها . فهو أولا ما يزال صغيرا ، ثم أن هذه الأفكار مختلفة تماما عن الأفكار السائدة أو «التسيدية» للهيئات العلمية كلها . ولذلك عندما أرسل لبعض أصدقائه من اكتشافاته جامت عباراته خائفة مرتجلة ، كأنه يعترف بجريمة ارتكبها ، ولم يكن ذلك قصده . وإنما وجد نفسه أمام شيء جديد مختلف . وكان لابد أن يقول .. وقال .

وفي سنة ١٨٥٩ أصدر دارون كتابه عن « أصل الأنواع » .. وكان هذا الكتاب نقطة تحول في التاريخ الانساتى والحيوانى .

ولم يكن دارون أول من تحدث عن التطور تماما كما أن خريستوف كولمبس ليس أول من اكتشف أمريكا . وإنما تحدث عن تطور الكائنات كلها أناس كثيرون . بل أن عددا من الفلاسفة والعلماء تحدثوا عن التطور قبل دارون . وقبل أن يعرفوا أنه أصدر كتابا يشرح فيه خطوات تطور الحيوانات بعضها الى بعض حتى اقتربت من الانسان .

وربما كان الفيلسوف الالمانى هيجل هو اول من رسم خطوط التطور لكل شيء فى الكون وأول من قال ان الأشياء تتطور بعضها الى بعض . وان الله قد وضع خريطة وصلاح تصعد عليها الكائنات وفقا لهذه الخريطة . وأن التطور من حالة الى حالة هى سنة الكون كله ..

وربما كان الفيلسوف الالمانى شوبنهاور هو اول من قدم للانسانية

نظرية التطور التي تحدث عنها دارون . وكان شوبنهاور أمتع وأوضح من دارون . ولم يشك شوبنهاور لحظة واحدة في أن الإنسان أصله قرد . قال أن أبناء آسيا أصلهم أورنج تان . . وأبناء أفريقيا أصلهم من الشيبانزى . . ومات شوبنهاور بعد صدور كتاب دارون بعام واحد دون أن يقرأ منه أو عنه سطرًا واحدًا . !

وكانت هناك نظريات كثيرة تفسر هذه التغيرات في تكوين الحيوانات نفسها . . لماذا رقبة الزرافة طويلة مثلا ؟ يقول عالم فرنسي اسمه لامارك : ان الزرافة تنحدر من سلالة كانت تعيش في غابات . وكانت الغابات أشجارا طويلة . فاضطرت الزرافة الى أن تمد عنقها الوف السنين لكي تأكل الأوراق من قمم الأشجار . . وطال عنق الزرافة لهذا السبب . . ومعنى ذلك أن الحيوانات « تتكيف » مع البيئة . أو يجب أن تتكيف مع البيئة والامات من الجوع . فالبيئة هي التي تؤدي الى تغير تكوين الحيوانات . أو حرص الحيوانات على أن تعيش هو الذي يرغمها على أن تتغير وأن تتغير والامات !

ونحن الآن لسنا بعيدين عن دارون وفلسفته . فهو يرى أن الحياة صعبة على الجميع . وأن الحيوان يجب أن يقاوم العقبات . ومن هذه المقاومة تتولد صلابته . ومن الصلابة يكتسب القوة . ومن القوة يكتسب التغلب على البيئة . . فاذا تغلب عليها عاش . . واذا لم يفلح في ذلك مات . وكل الحيوانات التي ماتت هي حيوانات تهرتها البيئة وغلبتها الظروف . وأول معالم الحياة هو الكفاح . والكفاح من

صفات الاقوى. والاقوى هو الذى يبقى . فالبقاء للاقوى . والاقوى هو الاصلح للحياة . . فالبقاء للاصلح . والحيوانات التى تعيش هى أصلح الحيوانات لان تستمر . فاذا استمرت دخلت فى صراعات جديدة . وهذه الصراعات الجديدة تحتاج الى أسلحة جديدة والذى يجدد سلاحه هو الذى يبقى . والذى يبلى سلاحه هو الذى يفنى . واذا كان الحيوان ينتقل من مكان فى الصيف الى مكان آخر فى الشتاء ، أو العكس فهو يختار الجو المناسب لحياته . . فالانسان يختار ظروفه المواتية له . . ولكن الطبيعة كلها تختار الحيوان المناسب . والانسان الاقوى . فالاختيار الطبيعى هو اختيار الأحسن . والأحسن هو الاقوى والاقدر على أن يتكيف ويتواءم وأن يتلامم ويتطابق مع ظروف حياته المادية والاجتماعية .

انتهى تفكير دارون بعد أن حشد له الوف الأمثلة من ملاحظاته الدقيقة جدا التى استغرقت أكثر من عشرين عاما !

وقد ارسل دارون خطابا لصديق له يقول : فى يوم وأنا انظر الى القمر يتوارى وراء السحب جاءتنى هذه الفكرة وكأنها صاعقة لمعت فى رأسى وهزتنى . واندهشت كيف أننى لم أعرفها من قبل . لقد أتركت بوضوح أن الحيوانات لا يمكن أن تكون من أصل واحد ثابت . لا يمكن أن تكون قد قطعت ملايين السنين من الغابات والجبال تحت المطر فوق الجليد ، وفى الكهوف على السفوح فى حرب مستمرة ، دون أن يتغير فيها مخالباها أو أنيابها أو أظفارها أو فراءها . . مستحيل . هذا ما اهتديت اليه !

ولم يتصور دارون لحظة واحدة انه بهذه العبارات المتواضعة

تد زلزل العلم والدين .. فالعلم لم يكن يرى شئنا من ذلك . وانما يرى العلماء أن القرد أصله قرد .. أما الدين فيرى أن القرد أصله قرد ، وأن الانسان أصله آدم وجواء .. ولا علاقة بين القرد والادميين !

وفي يوم كان دارون يتناول طعام افطاره عندهما دخل الخادم بخطاب .. فتح الخطاب . انتفض واقفا واجما . ثم ألقى بنفسه على المقعد حزينا .. ولكن لم يستمر كذلك كثيرا . فقد أدرك أن حياته كلها في خطر . وأن سنوات بحثه وملاحظته كلها توشك أن تأكلها نيران المدفأة أمامه .. فالخطاب يقول له : أن رجلا اسمه والاس يعيش هنا في جزيرة الملايو . الرجل عالم جليل فقير . مريض .. لقد حبسته الملاريا من أن يواصل رحلته الى أوروبا . هذا الرجل يناجر في الفراشات النادرة . ويبيع الحيوانات الجميلة لعدد كبير من المهواة والباحثين في أوروبا كلها .. فهو قد أرسل أكثر من عشرين ألف نوع من الفراش والطيور الى الهيئات العلمية . وهو يعيش من الصيد والتجارة . ولكن من المؤكد أن لديه كل مزايا العالم الكبير .. وقد هداه البحث الى شيء جديد .. والرجل يقول أن أساس كل شيء في الحياة الانسانية والحيوانية هو التطور . وأن الحيوانات تكافح من أجل أن تبقى . والحيوانات التي تبقى هي الأقوى ..

وكلام آخر كثير هو بالحرف الواحد ما قاله دارون !

ومن الغريب أن الرجلين قد خرجا بهذه الأفكار بعد أن قرأ كل منهما ما كتبه القس الانجليزى مالثوس عن تزايد السكان الذى سوف يؤدي الى جوع الانسان وفنائه . وكل واحد من الرجلين قد ذهب في طريق ليصل الى نفس النتيجة !

وليس هذا هو الحادث الأول من نوعه في التاريخ . فكثيرا ما اهتدى العلماء الى نظريات واحدة في وقت واحد ، دون أن تكون بينهما صلة ما .. فقبلها بمائتي سنة اهتدى العالم الإنجليزي نيوتن والفيلسوف الألماني ليبنتس الى منهج في الرياضيات واحد .. والى نظريات في «التفاضل والتكامل» متطابقة تماما . وسارع كل منهما باعلان نظريته الجديدة .. فكانت النظرية هي هي عند كل من الاثنين .

واهتدى دارون الى حل سعيد حتى لا يتهم الرجل الآخر بأنه سرق أفكاره . وحتى لا يتهمه والاس بأنه هو الذى سرقه . فقرر دارون أن ينشر كتابه الذى ألفه في ٢٣١ صفحة على نفس البحث الذى كتبه والاس هذا . ونشر الكتابان معا . ولكن قدر لدارون أن يكون هو صاحب الاسم وصاحب النظرية وصاحب الثورة أيضا .. ولم تساعد الظروف والاس هذا ، فقد كان فقيرا وكان بعيدا عن لندن . ولم يكن لديه هذا الصبر على المتابعة .. ولذلك أصبح دارون هو صاحب نظرية التطور أو التطور نفسه أما والاس فهو « الصدفة » .. أو هو من عجائب الصدف . ودخل تاريخ التطور الانساني على أنه نكبة : اذ كيف أن رجلا مريضا في احدى جزر الملايو يهلوس طول الليل ويمسك القلم ويدفعه أمامه على الورق طالعا نازلا كأنه ثعبان يهتدى الى أفكار رجل آخر في لندن مريض أيضا يظل يهرش طول الليل حتى يسيل دمه ، تماما كما كان يفعل نابليون .. ربما وجد علماء الدراسات الروحية فرصة عظيمة ليقولوا : ان الرجل المريض كان في حالة شغافية جعلته يقرأ أفكار دارون وينقلها حرفا حرفا .. بل سطر سطر .. مع أن المسافة بينهما عشرات الالوف من الاميال .. ثم أن الرجلين لايعرف أحدهما الآخر !

شيء عريب هذا الذى حدث .. فعندما كان الانسان فى أوائل القرن التاسع عشر يفخر بأنه اخترع الآلة . وأن هذه الآلة قد أغنته عن الحصان والحصار ، جاء علم الحياة وعلم السلالات يؤكد أن الحيوان هو أصل الانسان . فإذا كانت العلوم الميكانيكية تريد أن تفخر بأنها نقلت الانسان من عصر الاعتماد على سيقان الخيول وأعناق الأبقار وظهور البغال ، فإن علوم الحياة قد أعادت الحيوانات الى مجدها .. بل انها هبطت بالانسان الى ما دون الحيوان .. بل انه ليس الا حلقة فى سلسلة تطورات الحيوان .. وانه ليس بعيدا أن ننظر الأجيال القادمة الى الانسان على أنه حمار أو حصان .. وذلك عندما يتطور الانسان الى كائن آخر أفضل .. المهم فى نظرية دارون انها حركت كل شيء ودفعته الى الامام .. او جعلت من الواجب أن يندفع الى الامام .. لأن الذى لا يتحول يتجمد . والذى لا يتطور يتدهور والذى لا يتقدم يموت .. وان هذه ليست ميزة خاصة بالانسان ، وانما الحيوان قد سبقه الى ذلك . فلا فضل كبيرا للانسان على الحيوان .. أما الآلة فهي من اختراع الانسان .. والآلة أبسط وأتفه من أى حيوان .. فالحيوان تحفة فى الخلق . وهذا ما ذهب اليه رجال الدين ، الذين حاولوا أن يجدوا لهم مكانا جديدا تحت شمس هذه النظرية . فإذا كان دارون قد هدم مفهوم الكتب المقدسة لأصل الانسان ، فإن رجال الدين بسرعة قد استفادوا من النظرية الجديدة وتكيفوا معها حتى لا يتصلب الدين ورجال الدين وبفوتهم قطار التطور .. ولذلك كان رجال الدين أول من قفز الى القطار الجديد وركبوه حتى لاتضيع من تحتهم ومن أيديهم أهم أسرار الكون .

ولما توفي دارون يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٨٢ أعلن رجال الدين أن

هذا الشيطان يجب الا يدفن في مقابر المعظماء • ومن الخير لهو الشعب
الانجليزى ان ينفذ ما اوصى به وهو ان يدفن في حديقة قصره الريفى • •
ولكن سرعان ما عدل رجال الدين عن هذا الموقف الجامد ورحبوا
بان يدفن الى جوار عظيم آخر هو نيوتن • • فكلامهما عظيم فى الحياة
وفى الممات وكلامهما خطوتان فى تطور علوم الطبيعة والحياة ! •



خلقنا الله بحياة لتغضى علينا بإنقاذ!

✳ المواصلات الحديثة قربت المسافات بين المدن والدول والقارات . وأصبح من السهل أن يتحرك الإنسان وأن ينقل امراضه من مكان الى مكان بنفس السرعة . . فالإنسان يركب السيارة والباخرة وينقل معه ميكروبات او حشرات تحمل الميكروبات والموت الى اى مكان . مثلا فى القرن السابع عشر انتقل مرض اسمه (الجمة المخية) وهو مرض يصيب كل الحيوانات ، وينقل الى الإنسان . اسمه باليونانية انثراكس . والتسمية دقيقة . ولذلك ترجمه الألسان بأنه (الفحم) والفرنسيون وصفوه بأنه الكاريون .

لأن المرض عبارة عن احتراق داخلى للحيوان . ولم يعرف أحد كيف ينتقل من حيوان الى حيوان الى انسان أو العكس . قالوا : انه عفريت يركب الانسان والحيوان ويشعل فيه النار من داخله . قالوا : لعنة من السماء حلت بالانسان فنقلها الى الحيوان . وقالوا : غضب الهى على الاثنين . .

ولكن الاطباء عندما نظروا تحت الميكروسكوب وجدوا ميكروبات على شكل عصى .. ووجدوها في الطحال . ولم يذهب احدا الى أبعد من ذلك .. حتى ظهر عالم المائى مجهول كان يعمل في غرفة ضيقة جدا في برلين .. هذا الرجل اسمه روبرت كوخ عبقرية فذة في الفهم والصبر وبعد النظر . وفي سنة ١٨٧٦ عرف كوخ أشياء كثيرة وأكدها بهدوء . وظل كوخ هذا يطارد الميكروبات في أمعاء المصريين ومعدة الهنود وبراغيث اليابانيين ويعوض الأمريكيين .. وعرف الدوسنتريا ، وعرف الحمى الصفراء وعرف التيفوس والملاريا .. وكان كوخ هذا رجلا حكما وكان يقول : ان هذه الكائنات الصغيرة تحدثنى بعبارات دقيقة جدا .. وأنا أحاول ان أسمعها بوضوح . وأنا أؤمن بأنها لا تكذب . بل اننى اعتمد على ذلك كل الاعتماد . ولهذا سوف أصل الى شيء ..

ومن الاكتشافات التى أذهلت كوخ هذا انه عندما وصل الى أواسط افريقيا اكتشف ان ذبابة « نسي نسي » التى نصيب بالنوم حتى الموت كل من تلمسه ، بها دم تمساح . وبعد ذلك اكتشف ان التمساح هو أكبر خزان لميكروبات النوم ، وان لديه مناعة تامة ضد الإصابة بهذا المرض . وأعجب من ذلك انه عثر على تماسيح لاتنام الا نادرا !

واهتدى كوخ أيضا الى أن فئران السفن هى التى تنقل الأوبئة من بلد الى بلد ..

فانفئران السودان جاءت من الشرق فى سفن الصليبيين ..

فكان أوروبا قد لقيت ما تستحقه من عقاب .. جاءت تنشر الموت والتعصب ، وعادت سفنها مليئة بالفئران تنشر فيها الطاعون والابوثة التي اكلت عشرات الملايين من الناس — الكوليرا مثلا !
ثم جاء الفأر البنى اللون ..

ففى سنة ١٧٣٢ وقع زلزال عنيف .. ومزعت ملايين الفئران واتجهت الى احد ضفاف نهر الفولجا عند مدينة استراخان ..
ولأسباب لا تعرفها الآن بوضوح قررت الهجرة .. وعبرت النهر وغرق منها مليون فأر على الأمل .. ولكن بقية الفئران وصلت الى الشاطئ . وواصلت زحفها الى الجنوب الى أوكرانيا .. ثم الى الغرب الى بولندا . ثم الى بوهيميا .. ثم الى الشمال قليلا الى بروسيا .. حتى وصلتها فى سنة ١٧٤٠ .

وفى سنة ١٧٥٣ وثقت عند ابواب باريس ودخلت .. ونكاثرت بسرعة ..

ووصل الفأر البنى الى أمريكا فى سنة ١٨٥١ .. واحتل بجدارة المكان المتواضع الذى شغله الفأر الأسود وراح ينقل بهمة ونشاط أمراض التيفوس وكثيرا جدا من أمراض الفم والقذمين ..

* * *

الى جانب شخصية العالم الالماني روبرت كوخ ظهرت شخصية استولت على القارة الأوروبية كلها : باستور .. ذلك العالم

الفرنسى النحيف المشلول احدى الساقين .. هذا الرجل لم يكن الناس ينظرون اليه على انه طبيب او باحث وانما على انه رجل دين يعالج الناس بالمعجزة . فهو انسان طيب . او رجل مبارك . وهو نفسه كان يعتمد على احساس داخلى بأنه سوف ينجح .. وأنه سوف يشفى المرضى باذن الله . لماذا ؟ لا يعرف ؟ كيف ؟ لا يعرف . ولكن هذا يحدث له ومعهم وبسببه كثيرا جدا .

هذا الرجل هو من ذلك الطراز من الناس الذى لا يخاف الناس .. اى لا يخاف أن تكون له افكار خاصة مختلفة عن افكار الناس .. وأن له احلاما أخرى يكذبها الواقع . ولكنه وحده الذى يصدقها .. انها حياة قاسية جدا : أن يكون الانسان وحده مع افكاره . أو أن يكون الانسان مثل خرستوف كولبوس وكل الناس يسخرون منه ولكنه مؤمن بأنه على حق .. أو مثل نوح عليه السلام بينى سفينة على الأرض . والناس يمرون به ضاحكين ولكن نوح كان يؤمن بأن السماء سوف تمطر وأن الطوفان سيجتاح كل الناس وسوف ينجو هو باهله من الفرق .. وعلى الرغم من أن نوحا هذا قد انقذ الناس والحيوانات ، فانه لم يفلح فى أن يقنع ابنه بأن يركب معه .. فنجأ الناس وفرق ابنه .. وكذلك العالم الكبير باستور الذى عالج الكثيرين من الناس وشفاهم ، لم يفلح فى علاج اقرب الاقربين اليه .. وماتوا .. ولكن الملايين شفاهم أو انقذهم قبل أن يصيبهم مرض .

واستطاع باستور ومعهدده أن يحتفظا بهذه السمعة العالمية المحترمة .. من أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .. بل انه حدث أخيرا جدا أن أصيب بالتسمم بعض زبائن مطعم فى مدينة

لابلاتا بالأرجنتين . مات منهم عشرون . فأرسلوا عينات من الطعام ومن المصابين الى معهد باستور في باريس . وبسرعة جاء عدد من العلماء . وأتخذ مئات آخرين . . وحدث أيضا أن انتشرت الحمى البابونية في إحدى مزارع تصب السكر في جزيرة مدغشسقر (جمهورية مالاغشى) . وبسرعة طار عدد من أطباء المعهد وأوتلوا سريان الطاعون بين المواطنين . أهم من ذلك أن المعام كله يتوقع من هذا المعهد أن يأتى بالمعجزات . .

ويمكن أن يقال أن ملايين الناس في العالم اليوم أحياء بسبب هذا المعهد الفرنسي الذى انتهى سنة ١٨٨٨ . ويوم انشائه وقت باستور نفسه يتساند على واحد من أولاده ويبكى من شدة الفأثر . . وقد حرص باستور على أن يكون هذا المعهد أهليا مستقلا . . وقد شارك في بناء هذا المعهد بأمواله : أطفال من الهند وبنالذة من الصين ومرضى في أمريكا . . وملوك وإباطرة . . وظل هذا المعهد هيئة علمية مستقلة تماما . .

* * *

أما الاحداث التى يذكرها العالم لهذا الرجل العظيم باستور فلا عدد لها . . ولكن الرجل كان يؤمن بأن هناك كائنات صغيرة جدا . . هذه الكائنات - البكتريا - هى مصدر الشر والخير للإنسان . بعض هذه الكائنات تضره وتنقل اليه المرض . وبعضها تلغمه وتقوم بعمليات التخير في الطعام والمشروبات . . وهو يؤمن بأن بعض هذه الكائنات اذا ارتفعت درجة حرارتها ماتت . وبعضها اذا جعلناه ضعيفا ، وحققنا به انسانا مريضا لانها تلهب حماس القوى الداخلية في الجسم الانسانى لتقاوم المرض الضخيل . .

ونحن عندما نقول أن اللبن « مبستر » أى أننا قد بردناه ثم سخناه ، كما كان يفعل باستور . وبذلك ماتت الميكروبات وأنتقنا حياة مئات الملايين من الأطفال في العالم من الإصابة بالسل !

ومن المواقف الحاسمة في تاريخ باستور وفي تاريخ العالم كله أيضا :

انتشار مرض الكلب — بفتح الكاف وكسر اللام . فالتاريخ لا يذكر لنا الا حالة واحدة فقط أصيب فيها انسان بهذا المرض ثم قدر له أن يعيش لأن كل المصابين ماتوا ، وكان لابد أن يموتوا . .

حتى كان ذلك اليوم الحاسم في التاريخ . . أنه يوم « ٦ يوليو الرائع » سنة ١٨٨٥ . جاء طفل في السادسة من عمره . . الطفل اسمه يوسف ميستر . مهم جدا هذا الطفل . وهذا الاسم . الطفل قد عضه كلب مريض أربع عشرة مرة في أماكن مختلفة من جسمه . . وكانت محنة . فباستور لا يعرف ما الذى يعمل . ان هو عالج الطفل وماتت شسبت فيه أمدأوه وقالوا : قاتل . . ألم نقل لكم من وقت طويل ؟ . .

وإذا لم يعالجه كان فشله أوسع انتشارا من نجاحه .

ولكنها العبقرية هي التي الهته أن يحقنه أربع عشرة مرة . . لماذا هذا الرقم ؟ لا يدري . ولكنه الرقم الذى يتم عنده الشفاء . . وشفى الطفل . وانتشر هذا الخبر في أوروبا كلها على أنه معجزة المعجزات . . وشاء باستور أن يجعل هذا الطفل اعلانا حيا لنجاحه

.. فجعله بوابة للمعهد .. بل انه بعد وفاة هذا البواب ، اقاموا له تمثالا — وما يزال — في مدخل المعهد كأكبر نجاح حققه باستور لنفسه وللعالم كله ..

وبعد ذلك جاءه من روسيا ثلاثون فلاحا عضتهم ذئاب مسعورة .. جاؤوا الى باريس ولا يعرفون من اللغة الفرنسية الا كلمة واحدة : باستور .. وعالجهم وأنقذ من الموت عشرين واحدا منهم .. أما سبب وفاة الآخرين فلأن الذئاب قد عضتهم قبل ثلاثة اسابيع . وقد جاؤوا اليه متأخرين .

والوف آخرون من كل أوروبا جاؤوا الى باستور يطلبون علاجاً لأمراض أخرى لا يعرفها. ولكنه تمنى ذلك وتمنى لهذا المعهد الذى أنشئ حديثاً أن يكون أملاً لكل المرضى . والا يرد مريضاً .. ولا يخيب أملاً فى الشفاء .. وهذا المعهد يعيش على الامصال التى يبتكرها ويصنعها ويبيعها للعالم كله لحقن المرضى .. وسلامتهم بعد ذلك ..

يقال أن مريضاً سأل باستور : كيف عرفت طريقك الى هذه الكائنات الصغيرة ؟

فأجاب : أنا لم أعرف طريقها ، هى التى عرفت طريقى ... واعترضتنى وعطلتنى .

— كيف ؟

— انها اصابتنى بالشلل فى احدى ساقي .. ولا اعرف ان كنت سوف امشى لاجد علاجاً للذين اصابوا .. أو لاجد وقاية للملايين حتى لا يصابوا ..

— ولكنك اتقذت الملايين ..

— هذا رقم كبير ..

— فعلا اتقذت الملايين ..

ولكن هناك ملايين آخرين يجب انقاذهم .. ملايين لم يولدوا بعد .. هذا هو الذى يشغلنى !

وتقبل باستور سئل العالم الالماني العظيم روبرت كوخ عندما جاء الى مصر فى اواخر القرن التاسع عشر :

— يا دكتور كوخ انت مكتشف عظيم فمضحك ليقول : مكتشف عظيم لكائنات حقيرة .

— هل ترى انها حقيرة فعلا ؟

— لاشيء حقيرا فى هذا الكون لكل شيء خلقه الله بمناياة لىؤدى دوره بملتهى الاتقان .. آه لو رأيت هذه الميكروبات كيف تعمل على اداء مهمتها .. كيف تدافع عن نفسها .. كيف تتسلل الى الجسم الانسانى وتنهصن .. ان نشاطها وتناسكها ونظامها يحسددها عليه كل المهندسين والعسكريين .. ولكنها كائنات ضارة .. وهى

في نفس الوقت كائنات لها نظام عجيب يبعث على الدهشة والايان
بعظمة الله .. صحيح انها ضارة جدا ولكنها اجهزة دقيقة جدا ..
وهذا هو الذي يبهرنى .. وأتوكل دائما أن أهرب من الوجود
في أسرها .. وأتوقف بسرعة عن الاعجاب بها الى العمل على
الوقاية منها ..

.. وكانت بداية رائعة للحرب ضد الكائنات الصغيرة جدا من
اجل القضاء على بقية الكائنات !



هذه الكائنات النازية لم تهبط الجيوش

جمع الملك لويس الخامس عشر رجاله
وتلفت اليهم يقول : ماذا يجب أن نكتب في هذه
الرسالة ليعرف عدونا روح الشعب الفرنسي .
واختلف الرجال حول الملك . كل واحد يقول
عبارة تليق بعظمة فرنسا ولكن الملك رأى شيئاً
آخر . وأشار بيده . وجاء رجل وقال له :
هذه العبارة أنقشها على مدفعي .

وضحك الرجال حول الملك . وكأننا أراد الملك أن يخرجهم
جميعاً . فتساءل : ماذا تقولون ؟ ولم يقل أحد . وقال الملك :
انقش هذه العبارة على مدفعي : انقلت باب المناقشة وفتحت
النار !

ثم جاءت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ١٩ أغسطس سنة
١٧٩٠ . ومسحت هذه العبارة !

ولكن مثل هذا النقاش بقي دائراً دائماً في كل مكان : هل
هى الحرب ؟ هل هو السلام ؟ أيهما الوسيلة لانتعاع الآخرين . .

أو ارغامهم على الانتعاش والنتيجة : موت عشرات الالوف .
مئات الملايين من الناس في كل العصور !

ولكن لماذا الحرب ؟

قبل أن تجيب على هذا السؤال بالنيابة عن شعبيك ، أسأل :
لماذا الحرب بينك وبين الناس . لماذا وصلت الى نتيجة فاضربها
في عدد سكان شعبيك والشعوب الأخرى . والنتيجة مقنعة لانها
هي الجواب الصحيح !

* * *

ولكن هل هذا هو نوع الحرب الوحيد الذي عرفه الانسان !
الجواب طبعاً : لا ... فهناك حروب من نوع آخر .. حروب
بلا جيوش ولا أسلحة ولا نار ولا شرار ولا خطب ولا زعماء ،
ولا نياشين ولا أنواط .. حروب أقوى من كل الحروب ، بل
هي الحروب التي أوقفت الحروب وأعادت الجيوش من منتصف
الطريق .. ولم يجد الانسان وسيلة واحدة لايقاها .. هذه
الحروب هي حروب الانسان ضد قوى طاغية باغية جبارة ..
ضد الميكروبات والحشرات والحيوانات التي تنقل الميكروبات
الى طعام الانسان وشرابه وملابسه وتقهره في معركة غير
متكافئة الميكروبات هي الأقوى دائماً ..

ومن أقدم العصور يحدثنا مؤرخ الاغريق هيروdot أن الملك
الفارسي اكزركيس دخل منطقة تساليا بجيش من ٨٠٠ الف رجل
.. ونفذت الذخيرة ثم جاء الجوع فأسقط رجاله ضحية لمرض
لا يعرفونه .. فمات من رجاله نصف مليون جندي .. وعاد الملك
كسبر الرأس الى بلاده !

أما قوات اثينا ، فقد هاجمها المرض ، وأطاح بجيشها وأرقدته على الأرض . وداست الجيوش بعضها البعض . . ومات ألف فارس وأربعون ألفا من الجنود .

وفي عام ٤١٤ قبل الميلاد حاصرت قوات قرطاجنة مدينة سرتوسة واكتسحتها الأوبئة وانحسرت المعارك قبل أن تبدأ .

ولا أحد يعرف مصير روما والحروف البونية لو وجد القائد هاتيبال تواته في صقلية كما تركها قوية ولم يستبد بها المرض .

ثم الحروب الاهلية في روما سنة ٨٨ ق.م وانقصار ماريوس المؤكد قد اضاعه انتشار مرض لا يعرفون اسمه في ذلك الوقت وقضى على عشرين ألفا من رجاله .

وفي عام ٤٢٥ ميلادية تقدمت جيوش الهون الى القسطنطينية . . ولكن وباء استشرى بينها فعادت الى قواعدها في وسط اوربا .

أما الحروب الصليبية فهي نموذج صارخ لما يفعله مرض الأستربوط الذي يجيء عن نقص في التغذية وحاجة الجسم الى الفيتامينات ، وضعف الجسم وعجزه من مقاومة اى مرض دخيل ففي ١٠٩٨ زحفت الجيوش الصليبية في اتجاه الاراضى المقدسة ، وزحف الجوع وسوء التغذية في الاتجاه الآخر . وكانت هذه الجيوش تضم سبعة آلاف من الفرسان ، مات منهم خمسة آلاف .

وبعد أيام من الزحف على القدس سنة ١٠٩٩ لم يبق من

الجيش الذى يتكون من نصف مليون سوى ستين ألفا . . وفى سنة ١١٠١ أصبح عدد القوات الصليبية عشرين ألفا . . عادوا حفاة حراة يركبون الأبقار والحمر الى أوروبا !

وفى الحملة الصليبية الثانية التى قادها ملك فرنسا لويس السابع كان من نصيبها أن تلقى نفس النهاية . ولم يبق من جيش يضم نصف مليون سوى ثلاثين ألفا !

وحدث شيء آخر فى سنة ١١٩٠ أن جاء مرشد تركى وسارت القوات الصليبية وراهه ، وإذا بالرجل يستدرجهم جميعا الى الصحراء حيث الجوع والعطش ومرض الاستقربوط ، مات مائتا ألف ، أما الباقون فماتوا نصف أحياء . . ومات الكثير منهم فى الطريق حتى عبروا الدردنيل بقايا بشر !

وحدث أيضا أن الامبراطور الألماني فريدريش الثانى قد غادر بأسطوله ميناء برنديزى الايطالى ، فى طريقه الى بيت المقدس . . ولكن فى احدى ليالى ١٢٢٧ أحس الامبراطور بالآلام شديدة واسهال دموى . لقد أصيب الامبراطور بالدوسنتاريا وجاء طبيب الامبراطور . . ما الذى يصنعه ؟ ولكن بعد ساعات أصيب أحد الضباط . . ومات الضباط والوف الجنود وعاد الملك وجيوشه من عرض البحر !

والاستقربوط ليس مرضا معديا ، ولكن من امراض الحروب ! وخصوصا القوات المحاصرة والقوات الزاحفة وقتنا طويلا . . وقد اهلك ملايين الجنود فى التاريخ . . وهذا المرض ليس خطيرا فى ذاته فقط ، ولكنه صديق لجميع الأمراض الاخرى . فهو يساعدها

على التسلسل الى الاجسام ويضعف مقاومتها .. ويجعل اقامتها
أيسر .. حتى الموت !

وفي الجمعة الاولى من سنة ١٢٥٠ أعلن القديس لويس ملك
فرنسا ، أن قواته تصاب بأشياء غريبة . وفسر ذلك بأن رائحة
الجثث هي السبب . وأن الديدان التي تأكل جثث القتلى في الانهار ،
هي التي تؤدي الى انتشار الأمراض بينها . أما المرض فهو
الاستربوط طبعا . وكان يجفف جلد البشرة والساق .. ويجفف
الحلق والشفتين واللثة .. وكان الحلاقون يزيلون هذا الجلد
الميت بالسكين حتى يتمكن الجنود من تناول الطعام والشراب .
وكان الجنود يصرخون كالاطفال . ولكن لا تفسير علميا لذلك
وانسحبت جيوش القديس لويس . ولم يكد يصل الى تونس حتى
مات يوم ٣ أغسطس سنة ١٢٧٠ ومات ابنه يوم ٢٧ أغسطس
.. وكانت آخر كلمات القديس لويس : هؤلاء الكفرة الوثنيون قد
استخدموا ضدنا أسلحة لا نعرفها — أما الكفرة الوثنيون —
الذين يقصدهم فهم المسلمون !

أما القوات الرومانية فقد أحرقت معسكراتها كلها يوم ٦
أغسطس سنة ١١٦٧ لماذا .. يقول طبيب الحملة نفسه . أصيب
الجنود بارتفاع في درجة الحرارة ورعشة وهذيان وآلام شديدة
في الظهر والساقين والبطن . وهذا التشخيص دقيق .. أما
المرض فهو التيفوس !

وهو من أخطر الامراض وأشدّها فتكا بالجيوش في العصور
القديمة !



ويمكن أن نسجل الصراع بين فرنسا وأسبانيا في كل العصور القديمة بأنه صراع بين المرض والصحة . وأنه في كل مرة تزحف القوات يعود بها المرض . وكان المرض أو الميكروب هو الذى يحدد اتجاه الجيوش ويلوى مسارها وانكسارها والمك الفرنسي فيليب الثالث عاد من حملته على أسبانيا سنة ١٢٨٥ . فقد هزم الوباء جيش الملك وقضى على الملك نفسه !

وربما انفردت الحروب بين أسبانيا وفرنسا بانتشار مرض واحد هو التيفوس ، وهو يجيء من القمل الموجود في ملابس المتحاربين !

وفي أول أكتوبر سنة ١٤٣٩ وصل الإمبراطور الألماني البرشت الى مشارف بغداد . وفي يوم ١٣ من نفس الشهر انسحب الإمبراطور والجنود . فقد أعدتهم الدوسنتاريا عن مواصلة السير أو استئناف القتال !

أما الملك شارل الثامن ملك فرنسا وهو يحاصر نابولى الإيطالية فقد أصدر قراره بالعودة . ولم يكن في حاجة الى أن يشرح السبب ، فقد أصيب هو والوف من جنوده بمرض الزهري !

وعندما حاصر الملك ثشارل الخامس ملك فرنسا مدينة متس الألمانية تراخى الحصار فقد أصيب هو وثلاثون ألفا من جنوده بالدوسنتاريا .

أما الإمبراطور الألماني ماكسميليان الثانى فقد فقد جيشا من مائة ألف جندي كان موجهها ضد السلطان سليمان . وكان في نية الإمبراطور أن يزحف على المجر ولكن حدث شيء سنة ١٥٦٦ جعل الإمبراطور يعدل عن قراره . . فقد دبت المعارك بين القوات . .

وسحب كل واحد سلاحه على الآخر : سخونة وهذيان . فلجنود
قد أصابهم التيفوس وعدل الامبراطور عن الحرب !

اما حروب الثلاثين عاما في أوروبا ، فقد تميزت بسيادة التيفوس
على كل المتحاربين . بل ان القوات الالمانية قد زحفت من اتجاهين
على مدينة نورمبرج في سنة ١٦٣٢ ، ودون اتفاق بين الطرفين
انسحبت الجيوش من هنا وهناك . والسبب : الاستقربوط ،
والتيفوس والدوسنتاريا .

والملك الانجليزي تشارلز الاول كان في نيته ان يزحف على
لندن . وعارضه البرلمان . وتوقف بعض الوقت ، ثم توقف نهائيا
بعد ان أصابه التيفوس . فتوقف عن الحركة تماما .

وعندما انتصرت قوات الامبراطور فريدريش الاكبر على قوات
الامبراطورة ماريا تريزا النمساوية زحف على ولاية بوهيميا ..
ولكن على غير ما توقع النمساويون ، عاد الامبراطور منسحبا
لما السبب نيرويه لنا الدكتور لوكوف طبيب الامبراطور : لم يكن
الامبراطور معتدل المزاج في هذا اليوم ، كان عصيبا جدا ، وكان
رجلا كافرا . ولا يؤمن بوجود اله أو معجزة أو ان الدعاء الى
السماء من الممكن ان يحقق شيئا ما .. وكان الناس حول
الامبراطور يصلون له . وكان الامبراطور عاقلا . فقد امتنع عن
الطعام . وكان يحتفظ بتمواع من العقاقير جاءت اليه من الشرق
ولابد ان أحدا قد نصحه بان يتناولها كلما مرض . وتناول الذي
لا أعرفه . وثمنى الامبراطور من الدوسنتاريا .. ولكن الالوف
من جنوده قد خلعوا ملابسهم وتفرقوا في الغابات بسبب الاسهال
الدموي الشديد .. وقرر الامبراطور وهو حزين تماما ان نجح
الشياعنا ونعود . ولا داعي للحرب !

وقد لعبت الدوستناريا دورا هائلا في انقاذ الثورة الفرنسية — هكذا يقول الطبيب الساخر المتع هانس تسنسر في كتابه «القران والقلم والتاريخ» . يقول : في سنة ١٧٩٢ قرر الامبراطور نريدريش ملهم الثاني اعداد جيش من خمسين الفا للرحف على قوات الثورة الفرنسية والقضاء عليها . وراجع الامبراطور الخطة مع تواده . . وسألهم ان كان النصر مؤكدا . قالوا : نحن متحدون وهم متفرقون . نحن اقوياء وهم فلاسفة . .

وكرر الامبراطور الرحف . وتقدمت القسوات . ولكن نجاة تفرقت القوات كل جنسدى في مكان . . وكان الجنود يساقون القباط في البحث عن مكان يتوارون فيه . فقد اذابتهم الدوستناريا . . وكان منظرا غريبا عجيبا . . كل هذه القوات قد دخلت على شواطئ الراين تعاني من آلام هذا المرض المماهىء ا

وفي سنة ١٨٠١ ارسل نابليون قائده الجنرال لكلارك ومعه ٢٥ الف جندى لاضمار ثورة نشبت في هايبتي . ونزلت القوات الفرنسية الى شواطئ الجزيرة . وتراجعت امامها القوات الزنجية . ثم تلامت الحمى الصفراء تحصد الفرنسيين وقتلت منهم ٢٣ الفا . . ولم يبق حتى من هذا العدد سوى ثلاثة آلاف فرنسى عادوا الى فرنسا سنة ١٨٠٣ ا

يقول كوركوف طبيب نابليون : لو كان نابليون قد توفي بعض الوقت في بولندا . واعاد تنظيم قواته . وراعى الاجراءات الصحية ما كان هذا مصيره امام موسكو . ان المرض قد هزمه قبل الجليد وتبل القوات الروسية . المرض اولا . والجليد ثانيا والارماق ثالثا والروس رابعا .

يقول كوركوف أيضا : لقد انسحب نابليون من موسكو ومعه
مائة ألف جندي .. أما الباقي نموتى ومرضى ومتجمدون وقتلى .

أما المارشال الفرنسي ناي فقد أمره نابليون بأن يصعد ..
وصعد المارشال حتى لم يبق معه سوى عشرين جنديا وضابطا
.. وهؤلاء الجنود ماتوا بالدوسنتاريا والتيفوس .. بل أن هؤلاء
الجنود قد أكلوا جلود الأحذية .. وأكلوا لحوم البشر .. كان
الجندي ينكس على الجندي الآخر ويبحث في جسمه عن مكان لم
يصب بشيء ويأكله .. ويرتمى الى جواره مسموما أو مريضا .
ثم ميتا بعد ذلك !

* * *

ان العلم الحديث قد كشف للانسان أن هناك كائنات أصغر
منه وأقوى منه .. ليس الحيوان الطيب هو الذى أجمل من
الانسان وأكثر فضيلة .. وهو الذى أحق بالعناية والاحترام ..
وانما هناك كائنات أصغر وأحقر وأثفه مما يتصور .. هذه
الكائنات الضئيلة هى التى قضت عليه وأبادته وجعلته يشمر أنه
أصفر وأثفه .. وعلى ذلك يجب أن يتواضع الانسان قليلا أو كثيرا
.. فليس هو السيد المطاع الأمر الناهى القادر على كل شيء ..
أو القادر على كل شيء الا شيئا واحدا : هذه الحشرات أو هذه
الميكروبات التى لا يدربها .. ويجب أن يتفرغ لها ، فهى لا تكف
عن التكاثر والاتحاد دفعا عن حياتها .. ويوم ينقرض الانسان
سوف تكون هذه الكائنات وارثة للأرض وما عليها ومن عليها !

دروءا عن الناس والكلاب نظريّة !

ادبية فرنسا كولايت هي التي قالت : لو لم
اكن انسانا لتمنيت ان اكون حيوانا . ولما
سئلت : اي الحيوانات تختارين ؟ قالت : ان
اكون قطة تلعب مع كلب في قفص فرود على
جبل الأسود . ولما سئلت مرة اخرى : ولكن
لماذا ؟ قالت كولايت : فقط ان اعيش بغيرتي
بلا خوفا . . بلا حدود بلا حدود بلا تدخل من
احد من رجال القانون او الدين . . من هذه
الاكاذيب التي يسميها الناس : حضارة
الانسان . .

اننى لا ارى الانسان أسعد من الحيوان . . اننى لا ارى
الطائرات أخف من الطيور . . اننى لا ارى الرجال اشجع من
الأسود ولا اكرم منها . . اننى لا اصدق ان الانسان هو اجمل
وانكى واتوى هذه المخلوقات على الارض . . اننى كلما عرفت
الحيوان ازددت احتراماً له ، واحتراراً للانسان . . أسعد لحظات
عمري هي التي اشعر اننى فيها مثل قطة أو مثل كلبة . . وأن كل

الذين حولى ليسوا من البشر .. وذلك أجد سعادتى الكبرى فى أن
أغمض عيني حتى لا أرى آدميا واحدا .. وأعيش بخيالى مع ما لا
عدد له من الحيوانات .. اننى عندما افتح عيني أجد الانسان ،
وعندما أطبقهما أجد الحيوان — ولذلك سعادتى الكبرى أن أقفل
عيني والبواب والنافذة وأسحب الغطاء على رأسي وأموء كالهرة
السميدة بأنها تجردت من انسانيته المذيفة ! » .

وكلام كثير آخر جميل تقواه كولينت التى ألقت كتبنا عناوينها :
السلام عند الحيوانات .. كيكي اللذيذة .. سبع محاورات مع
الحيوانات ..

ولكن أحب الحيوانات الى كولينت : القطعة .. لماذا ؟ لديها الكثير
جدا الذى تقوله عن نعومة القطعة ونظافتها .. ورشاققتها ..
وتسللها فى الليل دون أن يشعر بها أحد .. كأنها نكرة أو كأنها
شبح أو كأنها مرض .. أو كأنها شيء يلير دون أن تدركه جاذبية
الارض ..

لتقول كولينت أيضا : لا أعرف لماذا هم فى الشرق يعتقدون أن
القطعة لها سبعة أعمار .. وأنها من الممكن أن تموت أكثر من مرة
.. أو من الممكن أن تعيش أكثر من مرة .. ان القطعة — وهى
شرقية الأصل — يجب أن تعيش مائة عام .. نكل ما يحتاجه
الانسان فى الدنيا ، هو أن يكون ناعم الحركة واللمسة والفكر ..
لان تعاسة الانسان هى خشونته .. خشونة الكلمة واللمعل !

وهذه القطط دخلت أوروبا مع الحروب الصليبية . وكانت
حيوانا شريبا . ولكن بسرعة عرف الأوروبيون فضائلها : أنها

تهجم على الفئران تأكلها ويكفيها ذلك فخرا . وقد كانت عند الفراعنة حيوانا مقدسا . وكان العرب هم الذين نقلوها الى أوروبا والاسلام قد طلب من الناس الرحمة بالقطة بل أن الرسول عليه السلام يروى : أن امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها : لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من فضلات الأرض .

ومع اكتشاف الميكروب وطرق العدوى بدأ الناس يخافون من القطط والكلاب أو من الكلاب فقط . لان القطة تنظف نفسها بلسانها فلا تترك ذرة تراب في فروة جلدها . ولكن العلماء يؤكدون أنه رغم هذه النظافة المؤكدة فانها تنقل الميكروب ايضا . بدأ الناس يشعرون بالخوف من القطط والكلاب ويحترسون في معاملتها وفي الاقتراب من اظافرهما وانيابها وفمها . . ورغم تحذيرات الاطباء فان الناس مضوا يحبون القطط والكلاب ويطعمونها ويقبلونها . وأكثر الاطباء يحذرون من القبلات بين الرجال والنساء ويرون أن الفم أقل مكان في الجسم كله نظافة وطهارة . وان العدوى مؤكدة عن طريق الفم . فهل سمع الناس هذه النصيحة ؟ طبعا لم ولن يسمعوها . ويتول أطباء آخرون : (ان الفم يتغير طعمه ويصبح اللعاب قاتلا للميكروبات عند القبلات الحارة . وان القبلات التي تنقل الميكروبات هي الباردة التي لا احساس فيها) .

وليست كل القطط مفيدة : أى تقتل الفئران ، انها القطط الضالة أى أن القطط التي تفيد الانسان هي التي لا تستفيد من الانسان .



ولكن عرف الانسان ان القط حيوان نظيف ، ولكنه غبي وعنيد . . وليس مفيدا مثل الكلاب . فالكلاب يسهل عليها أن تتعلم . . فتكون للحراسة وللصيد ولانتقاذ الجرحى في الحرب والسلام . .

وقد حصلت الكلاب على نياشين عسكرية . وصعدت سفن الفضاء .
وعاش الناس الوفاء السنين يتغنون باخلاص الكلب لصاحبه
ووفائه حتى الموت : فكثيرا ما عاشت الكلاب تحت اقدام أصحابها ،
حتى اذا مات الصاحب امتنع الكلب عن الطعام حتى الموت .
وفي القرآن الكريم قصة اهل الكهف الذين ناموا في كهفهم وظل
كلبهم نائما بالباب اكثر من مائتى سنة . .

وكان نوم الكلب واسمه « تطهير » رمزا للوفاء الطويل، والانتظار
الذى لا يعرف الملل !

وكان من عادة الناس فى الريف المصرى أن يكتبوا على خطاباتهم
كلمة « تطهير » — حتى لا يضيع الخطاب !

حتى جاء عالم روسى اسمه بافلوف فجرد الكلاب من وراثتها
ونزع من السعادة الانسانية كلها حبها لاخلاص الكلاب . . أو
حبها للاخلاص فى الكلاب . وخرج بنظرية تقول : لا الكلاب عندها
اخلاص ولا الانسان عنده وفاء . . وانما كل ما هنالك مجموعة من
الافعال والامعال المنعكسة المترابطة . . مثلا : اذا اتينا بالكلب
وقدمنا له الطعام وفى نفس اللحظة رحنا ندى جرسا . فان
لعاب الكلب يجرى مع رؤية الطعام وصوت الجرس . . واذا
سمع صوت الجرس دون طعام فان لعابه يجرى . . وكل
تصرفات الحيوان والانسان مثل هذا الكلب تماما . . فالكلب
الذى يرى صاحبه فينام عند قدميه أو يأكل أو يشرب . .
ويعتاد على ذلك ، فماذا تغيب الصاحب لسبب ما ، فان هذا الكلب
لا يأكل ولا يشرب . . لا حبا ولا اخلاصا . . ولكن مجرد فعل ورد
فعل . . فلا اخلاص ولا وفاء لا عند الناس ولا عند الكلاب !

ولكن الناس يرون في الكلاب رغم ذلك ، اخلاصا وحبا وطاعة
عماية — يفتقدونها بين الناس !

* * *

واذا كانت أدبية فرنسا كوليت قد كتبت كثيرا عن الحيوانات فلا
ينافسها الا أديب بلجيكا مترلنك الذي ألف كتابا عن « حياة النحل » .
وهو لا يقصد النحل بالذات . . ولكن ينظر للملى الانسان من خلال
النحل . . ويتمنى لو كان للانسان بعض مالدى النحل من حب
واخلاص وصدق وتعاون وانكار للذات . . ولكن احدا لا يستطيع
أن يألف النحل أو يستأنسه أو يجعله طبعا مثل الكلاب . . ولذلك
بقى النحل مثل كثير من الحشرات والحيوانات التى يراها ولا يقترب
منها أى يعجب بها من بعيد ! .

واستفاد الانسان من طائر تميم واستخدمه فى نقل الرسائل
من مكان الى مكان هذا الطائر هو « حمام الزاجل » وقد استخدم
الفراعنة هذا الحمام . . واستخدمه الاغريق . ويقال أن البحارة
الاغريق كانوا يطلقون هذا الحمام قبل نهاية الرحلة التى يقومون
بها . ويعود الحمام الى مكانه وفى جناح كل منها أو فى رجلها علامة
وهذا معناه أن البحارة قد وصلوا فى سلام . . وفى ذلك الوقت
لم يكن احد يعرف وضع الرسائل فى سيقان حمام الزاجل .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية توقف الاوروبيون .
لاسباب غير معروفة الآن عن استخدام حمام الزاجل الذى انتشر
فى الشرق الاوسط . فقد كان خلفاء بغداد يسمون فى استخدام
حمام الزاجل . فلا يوجد قصر من قصور الخلفاء أو الولاة ليس به
برج أو نفص . وكثيرا ما يكون نفص حمام الزاجل فى قاعة الاستقبال
فى قصر الخليفة . وكثيرا ما تلقى الخليفة أو السلطان أو الولى

مفاجأة تهبط من السماء عليها ويفتحون رسالة الحرب أو السلام
أو الحب . .

وفي سنة ١٥٩٠ عندما حاصر ملك فرنسا هنري الرابع مدينة
باريس ، لم يجد الفرنسيون وسيلة للانفلات من هذا الحصار
الا بحمام الزاجل يطلقونه في سماء باريس يحمل الاخبار ويحمل
اليهم الاخبار . . ويقال أن الانجليز قد استخدموا الصقور واطلقوها
على الحمام ولكن الحمام أسرع في الطيران ، وأكثر طاعة لفريزته
ولكن الصقور لم يكن من السهل ترويضها أو التحكم في طيرانها أو
انقضاضها على حمام الزاجل .

ومن أشهر حوادث حمام الزاجل في القرن التاسع عشر ان
المليونير اليهودي روتشيلد كان يتابع معركة واترلو بين نابليون
ولنجتون . وارسلوا له اخبار المعركة عن طريق حمام الزاجل .
ولم يكن أحد يشك في أن نابليون هو الذي سوف ينتصر . ولذلك
هبطت اسعار البورصة . وتقدم روتشيلد واشترى كل الاسهم
لان الحمام نقل اليه أن ولنجتون الانجليزى هو الذى انتصر . وقد
عرف روتشيلد هذه الاتباء قبل ان تعرفها الحكومة البريطانية .
وارتفعت الاسهم وعاد روتشيلد وباع كل ما عنده . فكسب الملايين
وفي سنة ١٨٤٠ استخدم الصحفى الالماني رويتر حمام الزاجل
بين فرنسا وبلجيكا ، حيث لا توجد خطوط تليفرافية .

ورغم وجود الخطوط التليفرافية ظل استخدام حمام الزاجل
منتشرا بين الدول وقد ظهر حمام الزاجل بصورة واضحة جدا في
الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ . ومن أشهر الرسائل
التي عرفها المقاتلون في ذلك الوقت ما بعث به مستشار المانيا
بسمارك فقد أرسل رسالة مع حمامة لاحد قواده . الرسالة تقول:
طبعا نهمت !

وواضح انه يخشى أن تقع هذه الرسالة في يد الفرنسيين . ولكن القائد فهم ما يقصده بسمارك . . ولم يفهم أحد غيرها شيئا حتى اليوم !

وكان الفرنسيون يضعون حمام الزاجل في بالونات . ويطلقون البالونات الى السماء . وبكل بالون قفص . ولا يكاد يرتفع البالون ويخرج من المناطق المحاصرة حتى يدفع الحمام باب القفص ويخرج . ويقال أن حمام الزاجل قد حمل أكثر من مليون رسالة الى أهل مائتي ألف فرنسي .

وعيب حمام الزاجل ان نشاطه محدود . فهو يعود الى المكان الذي عاش فيه . والذي يحدث هو أن الناس ينقلون الحمام الى أي مكان ثم يطلقونه فاذا به يعود الى مكانه الاصلى . .

مهما كانت المسافة . . قد تكون ألفا أو عشرين ألف كيلو متر . . ويستطيع حمام الزاجل أن يطير بسرعة خمسين ميلا في الساعة ولا يتوقف عن الطيران حوالى العشرين ساعة . .

ولكن رجلا ايطاليا وجد حلا لهذا النشاط المحدود لحمام الزاجل فقد قرأ عبارة للشاعر الالماني شيلر تقول : ما لم يتمكن العقل من السيطرة على كل شيء ، فان الجوع والحب قادران على أن يتحكما في تصرفات الناس !

قرأ رجل ايطالى اسمه مالاجولى هذه العبارة وكان يحب حمام الزاجل ففهمها على هذا النحو : ان تجويع حمام الزاجل هو الذى يجعله يطيع الاوامر . . وابعاده عن انثاه أيضا .

ولذلك لجأ مالاجولى الى حيلة . . فكان حمام الزاجل اذا هبط عنده اطعمه كثيرا . . ولكن ابعده عن الانثى أو عن الذكر حتى

لا يكون جنس .. ثم نقله الى مكان آخر حيث يكون الجنس ..
وبعد التمرين اصبح حمام الزاجل بدلا من أن يهبط في مكان واحد ،
فانه يهبط في مكانين .. وكان هذا هو أول تعديل في سلوك حمام
الزاجل !

غير أن العلم الحديث لم يهتد الى تفسير واحد لسلوك حمام
الزاجل . هناك رأى يقول : ان الحمام يهتدى بجاذبية الارض ..
ورأى يقول بضوء النجوم .. ورأى يقول أنها ملوحة الهواء لو
الماء .. ورأى يقول بأن هناك بوصلة في رأس حمام الزاجل يضبطها
ذهابا وايابا .. ولكن لا يوجد تفسير واحد يقنع الجميع ..

وقبل أن تعلن الحرب العالمية الاولى بليلة واحدة كانت الجيوش
تنظم حمام الزاجل وتكشف عليها وتطعمها .. تماما كما تفعل
بقواتها المسلحة قبل دخول المعركة . وفي المانيا وحدها في ذلك
الوقت ثلاثة آلاف جمعية لتربية حمام الزاجل ..

وحاول الكثيرون أن يلتقوا حمام الزاجل دروسا أخرى كما
فعل الهاوى الايطالى مالاجولى .. ولكن لم يصلوا الى نتيجة
معتولة .. ولكن رجلا ايطاليا آخر هو الذى الفى مهمة حمام
الزاجل تماما . ذلك الرجل هو ماركونى الذى اكتشف الاتصالات
اللاسلكية بين الدول .. ولم يعد هناك ما يخيف أحدا او يعوقه ..
فالعالم كله أصبح قريبا جدا .. فنى امكانك أن تتصل بأى مكان
في نفس اللحظة وأنت جالس في بيتك !

* * *

ولا شك أن ذكاء القط أقل من ذكاء الكلب . وكلاهما محدود
الذكاء . والقدرة على تعلم هذه الحيوانات محدودة أيضا . وحمام

الزاجل ليس نكيا ولكنه ينطلق غريزيا وبصورة لا نجد لها نفسيرا علميا .

وربما كان الحصان اذكى هذه الحيوانات جميعا . فقد استطاع أحد النبلاء الالمان أن يجعل حصانا اسمه هانس أن يكتب بساقه الأرقام . . أو أن يعلمه الجمع والطرح والضرب ، فكان يكتب المئات بساقه اليسرى والعشرات بساقه اليمنى . ولم يحدث أنه اخطأ قط . .

واستطاع النبيل الالمانى فلهم فون دوستن أن يجعل الحصان يكتب كلمات المانية طويلة . .

واستطاع أيضا أن يروض أحد الخيول العربية على كتابة اللغة الالمانية بدقة . هذا الحصان اسمه « عربى » وكان عربى يخطىء فى كتابة بعض الحروف ويصر على ذلك . ولكنه كتب أكثر من مائة وخمسين كلمة المانية . .

وجاءت الحرب العالمية الثانية وشغلت الناس عن تلقين الخيول ان تتعلم أو تتكلم . .

* * *

ولكن اثر هذه الحيوانات وهذه الحشرات وهذه الميكروبات فى تاريخ الانسان طويل عريض . . ولكنه لم ينته بعد . وكل ما على الانسان فقط أن يسجل ما يحدث له بسببها ، وما يحدث لها بسببه . . ولكن فى ذهنه دائما انها هى الاقوى رغم ان احدا لا يصدق ذلك ، او لا يريد !

عندما أعلن حوسولني حرب الأبقار ضد الأغنام!

ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان . وإنما يعيش الإنسان بالخبز وأشياء أخرى . وإذا لم يجد الإنسان الخبز ، فلا بد أن يتبحث عن شيء آخر بديل . . ومملكة فرنسا عندما نار الشعب عليها يطلب الخبز . قالت الملكة : ولماذا الثورة إذا لم يجدوا الخبز : فليأكلوا البسكويت . وكانت هذه العبارة امطاراً من البنزين على نار الغضب . فالملكة ظننت أن الشعب يجد الخبز والبسكويت معا . فإذا لم يجد هذا فيمكنه ان يتجه الى ذلك . .

ولم تفهم الملكة ان الشعب لا يجد الاثنين . ومهمة العلم الحديث الآن هي أن يجد الناس الخبز والبديل عن الخبز حتى لا يثور . أو حتى لا يموت .

والناس لا يموتون عادة بسبب الجوع فقط . وإنما بسبب المرض ، أو بسبب الحوادث أو بالحروب . ولذلك من الضروري أن يكون عند الناس محددات حتى تكفيهم موارد الطبيعة . . فإذا لم تكف فعلى

الانسان أن يهز رأسه ليجد حلا لهذه المشاكل الحيوية . وقد وجد الانسان الحل عن طريق الكيمياء . فهى نعوضه عن الذى فقدته . وهى التى تملا فراغ الجيب والمعدة ..

فالانسان مثلا عندما كان يجد السكريات فى عسل النحل اتجه الى تربية النحل ، وعندما عجز عن اطعابه اتجه الى استيراد السكر من القصب ، ثم راح يعتصر السكر من البنجر . وكان ذلك أيام نابليون وفى حروبه .

وظل النحل حشرة هامة جدا فى لىالى أوروبا . فالنحل مصدر الشمع ، والشمع هو رونق الكنائس . وظلت الكنائس هى المستهلك الاول للشمع العسل . وعندما انتشر الغاز ومن بعده الكهرباء لم يعد أحد فى حاجة الى شمع النحل .. وبعد ذلك ظهر السيكرين ليعلم انه ليس من الضرورى أن يميت الانسان نفسه من أجل السكر فى القصب وفى البنجر وفى العسل .. وعندما أعلن أن السيكرين خطر على الصحة ، وانه يؤدي الى الاصابة بالسرطان عاد الناس الى عسل النحل وعندما أعلن أن النحل أيضا يموت من المبيدات الحشرية الموجودة فى الحدائق . وأن السموم موجودة فى الزهور التى يمتصها النحل ، وأن نسبة من السم تنقل الى العسل نفسه ، عاد الانسان ليبحث عن السكريات فى الفاكهة . ولكن سموم المبيدات الحشرية قد انتقلت أيضا الى الفاكهة . وعندما حار الانسان ما الذى يفعله قال له الأطباء أن الجسم الانسانى قد تشبع بالسموم فلا خوف عليه . هنا عاد الانسان الى البحث عن السكريات من كل مصدر .

ولم يعد السمن أو الزبدة كافية لاطعام الانسان . وقد ظهرت هذه المشكلة أيام حملات الجيوش الفرنسية فى المناطق الاستوائية . فالجنود يحتاجون الى الزبدة . ولكن الزبدة تنوب فى الجو الحار .

وقد تلقى نابليون الثالث خطابا من أحد قواده يقول له : مطلوب معجزة . أن جنودنا لا يجدون الزبدة فالحر جهنم . والزبدة تتبخر . وأعلن نابليون عن مكافأة مالية كبيرة لمن يجد حلا . وفي ذلك الوقت تصادف أن أحد العلماء الفرنسيين كان مشغولا بالبحث عن حل .

هذا الرجل اسمه ميخ موريس . هذا الرجل اهتدى الى السمن الصناعى . وصنع هذا السمن من مواد نباتية وحيوانية معا . فاستخدم الدهون الحيوانية وبعض الزيوت النباتية . وكان ذلك ميلاد السمن النباتى أو الصناعى . وأنتجت فرنسا هذا السمن على نطاق أوسع . ثم جاءت هولندا فاستخدمت بعض الزيوت النباتية وزيت الحوت وانتجته بكميات أكبر . واشتهرت هولندا بذلك لدرجة أن كثيرا من الدول تطلق على كل انواع السمن الصناعى اسم : الهولندى ..

واقبل على هذا السمن الصناعى فقراء الناس طبعا . أما الأغنياء فعندهم الموارد الطبيعية الغالية الثمن ..

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الألمان استخراج الزبدة من الفحم . ونجحت التجربة . ولكن لم يتحمس لها أحد . وإنما جعلوها نكتة . ووقفت تجارب السمن من الفحم عند هذا الحد ، ولم يدفعها أحد الى الامام إلا بعد ذلك بعشرات السنين فى أمريكا .

وعاد الألمان الى استخراج السكر من الخشب . واستخراج السيكرين من القطران فى سنة ١٨٧٩ . وكان السيكرين هذا أشد حلوة من السكر . . ٥٠ مرة وبأسعار أرخص من استخراجه من الخشب .

ولم يفلح العلم الحديث في استخراج بروتينات الحيوانات في المعامل . ولذلك عاشت الحيوانات ليأكلها الانسان . ولكن هذه الحيوانات دفعت ثمن هذه الحياة غاليا . فلكي يكون طعمها لذيذا يجب أن نذبحها في سن صغيرة !

وإذا كانت بعض الأطعمة لا تكفى الانسان ، فهناك الصوف الطبيعي والحريير الطبيعي والقطن والكتان ، كلها لم تعد كافية لاحتياجات الانسان صحيح أن الأقمشة هي ليست الانوعا آخر من ورقة التوت التي تغطت بها حواء . . والأزياء ليست الانوعا في شكل ورقة التوت . وقد جاء وقت على الانسان كان كل شيء أمامه متوافرا في الطبيعة . أما في العصور الحديثة ، وبعد تزايد السكان لم يعد الصوف يكفى للملابس ولا الحريير ولا القطن ولا الكتان . فمما لانسان يأكل الأغنام . ودودة القز تعمل حتى الموت ، ولكن الانسان يطلب المزيد . ولذلك كان لابد من أن يجد حلا . والذين حاولوا كثيرون جدا . وربما كان الكيميائي الانجليزي روبرت هوك سنة ١٦٦٥ هو أول الذين حاولوا أن يجدوا بديلا عن الحريير الطبيعي فقد اهتدى الى محلول . وصب هذا المحلول في اناء به ثقوب رفيعة . ونزل السائل على شكل خيوط حريرية .

واهتدى كيميائي فرنسي الى شيء من ذلك ، وعرض اختراعه في باريس سنة ١٨٨٩ هذا الرجل شاردونيه . وحاول الالمان شراء الاختراع . فاعتذر الرجل بأنه باهظ التكاليف . وانه سوف يوالى البحث عن سوائل أرخص . وقامت ثورة بين علماء الكيمياء وبين الذين يربون دود القز والذين ينسجون الحريير . وكانت التهمة: أن هؤلاء العلماء يريدون خراب العالم والقضاء على مئات الالوف من الأتوال اليدوية لغزل الحريير الطبيعي !

وعلى الرغم من أن اليابان هي أكبر مصدر للحريير الطبيعي ، فإنها حاولت أيضا أن تجد بديلا عنه حتى لا تتفوق عليها الدول الصناعية أو التجارية الأخرى . ان اليابان أرادت أن تغزو البلاد الأخرى قبل أن تتعرض هي لغزو يخرب بيوتها ويبيد ديدان القز عندها . وفي نفس الوقت كانت مدينة ليون الفرنسية مركز تجمع خيوط الحرير الطبيعي في أوروبا كلها وحاول العلماء فيها أن يجدوا علاجا للموقف . فاقبل بعضهم على دراسة الحرير الصناعي واستحضاره في المعامل .

أما الأمريكان فقد كانوا أسرع الجميع في الاهتمام الى خيوط جديدة اختاروا لها اسما يوناني الشكل: نايلون . وفلح الأمريكان في اختراع أنواع من الخيوط ناعمة طويلة . يمكن أن تصل الى الوف الكيلو مترات دون أن تنقطع .

وقبل الحرب العالمية الأولى بالضبط اهدت ألمانيا واليابان في وقت واحد الى صناعة الصوف — أى الى الصوف الصناعي . ودخلت اليابان في حرب مع استراليا أكبر مصدر للصوف الطبيعي في العالم . وهاجمت دول كثيرة الصوف الصناعي في ألمانيا واليابان ، باعتباره « جنونا » نازيا أو فاشيا . وان هذا الصوف كساء الفقراء . وأن هذا الصوف الصناعي اختراع حقير يقصد افساد جمال الطبيعة — أو جمال صوف الأغنام في استراليا ، حتى تبقى استراليا هي سيدة هذه الصناعة ، وتظل بريطانيا هي صاحبة هذه التجارة . أما العالم كله فيجب أن يرضى بأن يكون زبونا ذليلا !

اذن لقد دخلت المعامل في حرب مع الأغنام ودود القز :

بل ان الأبقار هي التي دخلت في حرب مع الأغنام . فقد اهتدى

العلماء الى ان لبن الأبقار هو أحسن مصدر للصوف الصناعى .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٥ أعلن موسولينى على الشعب الايطالى وعلى العالم : أن ايطاليا سوف تنتج الصوف من لبن الأبقار . وكان هذا الاعلان رداً على تهديد أوربا لموسولينى بأنها سوف تضرب عليه حصاراً شديداً بسبب حربه مع الحيشة . وأقبل علماء الكيمياء على اللبن الأبقار يحولونها الى خيوط صوفية مستخدمين من اللبن مادة الكاثرين . ومن العجيب جداً أن الفراعنة استخدموا اللبن فى تثبيت الألوان . هذه حقيقة مؤكدة . وانهم استخدموا هذه المواد بنفس الطريقة التى اهدى اليها علماء الكيمياء ! واستخرج الايطاليون مادة لاينتال . ومن هذه المادة خرجت البديل والبنطلونات الايطالية ، ولا تزال !

وأصبح لبن الأبقار من أهم المواد التى يستعين بها العلم الحديث فى صناعة البدائل أو العجائن . .

كما أن العلم الحديث قد استغنى أيضاً عن المخلفات الحيوانية — الاسمدة العضوية . واهتدى العلم الحديث الى الاسمدة الكيماوية فى تخصيب التربة . وفى تغذية النباتات التى تعرش عليها الحيوانات التى يعيش عليها الانسان .

وهناك بعض المنتجات الحيوانية لم يعرف الانسان لها بديلاً بعد . أو عرف لها البديل ، ولكن ليس بالدرجة المطلوبة . ففراء الثعالب مثلاً لا يزال مطلوباً . وكانت الصين حتى أوائل القرن التاسع عشر أكبر مركز لتجارة الفراء يكل أنواعها حتى أن أمريكا أنشأت خطاً

ملاحيا بينها وبين الصين . ولكن رجلا أمريكا اسمه : استور اقام مركزا في شمال أمريكا . بل انه انشأ مدينة اسمها استوريا . كلمة هامة تجدها على ماركات السجائر وغيرها وعلى الفنادق الكبرى . فهذا الرجل استور قد حول بذكاء تجارة الفراء الى شمال أمريكا ودخل بها في حروب مع روسيا وجاء الاتجليز واستولوا على هذه المدينة . ثم استردتها أمريكا . وبقي الانجليز سادة هذه التجارة .

حتى وقع حادث عجيب سنة ١٩١٩ عندما ذهب بعض التجار الكنديين يعرضون نوعا غريبا من فراء الثعلب الفضي . وكان هذا النوع من الفراء زلزالا في أسواق الفراء . فقد استطاع هؤلاء الكنديون أن يختاروا عينات من الثعالب وأن يزاوجوا بين بعضها البعض حتى انتهى التزاوج والتنجين الى نوع فضي نادر . ولكن بسرعة عرف العالم سر هذا الثعلب . وأقبل التجار على تربية الثعالب في غابات واسعة . فملاحظ التجار أن الثعالب التي يحبسونها يكون فراؤها خشنا . أما اذا عاشت الثعالب في ظروف طبيعية أو كالطبيعية فان فراها يكون اكثر نعومة وليونة . ولاحظوا أيضا أن الثعلب يميل الى أن تكون له زوجة واحدة مما يؤدي الى الزيادة البطيئة في النسل . محاولوا أن يعددوا زوجات الذكور . ولكنها رفضت أول الأمر . فامسدها فأصبحت للثعالب الذكور أكثر من زوجة . وانتهوا الى أن ثلاث زوجات هو الحد الأقصى للثعلب الواحد . . ولكن اهتدى علماء الكيمياء باستخدام بعض المقويات الى أن الثعلب من الممكن أن يكون له حريم من اثناث دون أن يؤثر ذلك على فراء صفاره .

وفي ذلك الوقت — أي سنة ١٩٢٤ كان ثمن فراء الثعلب الفضي سبعة آلاف جنيه !

وجاءت الحرب الثانية فأوقفت هذا الجنون . وفي سنة ١٩٣٨

دلت الاحصائيات على أن في كندا وحدها أكثر من عشرة آلاف حظيرة
للثعلب الحظيرة الواحدة مساحتها الالف الأمدنة من الغابات ا

وظهر مناس خظير للثعلب : حيوان الشنشيليا في بيرو . .

ثم ظهرت اغنام كاركول في ايران .

وكان التجار يلجأون الى اجهاض الام قبل أن تلد بتليل ثم يسلخون
جلد الوليد . حرصا على أن تظل فروة الحيوان المسكين أكثر
نعمة . وفي بعض الأحيان يسلخون الولد بعد ولادته العادية
بساعات . .

ولابد أن اتاة المراه هي المسئولة عن حياة بعض الطيور وموت
أكثر الحيوانات . مثلا : لولا أن سيدة فرنسية جاءت من الجزائر
تزرع ماري أنطوانات ما عاشت مئات الالوف من النعام . فقد جاءت
هذه السيدة تهدي الى الملكة ريش نعام لتضعه على رأسها
أو لتكون مروحتها . وأصبح ريش النعام موضة . وأقيمت مزارع
للنعام في الجزائر . وحوت هذه المزارع عشرات الالوف من هذا
الطائر الذي ينزعون ريشه مرتين في السنة . وكان لابد من العناية
به وبصحته نظرا لرواج تجارة ريش النعام . ولاحظ تجار الريش
أن ذكر النعام اذا كتم له أنثى كثيرة ، وضعت الأنثى بيضا
تليلا . فهي اذن ليست مشكلة الأنثى ، وانما هي مشكلة قدرة
الذكر على أن يكون زوجا لعدد كبير من الأنثى . وحددوا للذكر
ثلاث أنثى فقط تضع مائة بيضة في السنة .

وبعد ذلك جاءت التماسيح . فهذا الحيوان لابد من قتله ليكون

جلده حذاء أو شنطة أو حزاما لسيدة اتيقة . ولا بد أن يكون ذلك في سنه الصغيرة . وبعد سلخه لابد من دباقة الجلد وتلوينه أو الاحتفاظ بلونه الطبيعي ..

وفي كاليفورنيا مساحات هائلة مغلقة على التماسيح .

وجاءت الثعابين لتقوم بنفس دور التماسيح . فجلدها حزام أو جزمة أو شنطة . والثعابين كثيرة الأنواع والأحجام والألوان . ولكن الثعابين لها مهمة حيوية في البلاد الحارة . ففي الهند مثلا تجد أن الثعابين تأكل الفئران . والفئران اذا تكاثرت أكلت محاصيل القمح والذرة . ولذلك يجب الإبقاء على الثعابين لاتقاذ الغلال . وفي الهند دعوات صارخة للإبقاء على الثعابين من أجل الجياع من البشر ! ولكن المرأة حريصة على أناقتها ولومات أهل الهند جوعا !

ومن أجل أناقة المرأة أيضا نزل الرجل الى أعماق البحر بحثا عن اللؤلؤ في قلب البحار . وهذا اللؤلؤ موجود في الخليج العربي — أو كان موجودا — وفي شواطئ اليابان والصين . وقد ارتفع اللؤلؤ على أعناق الجميلات . ويقال أن اللؤلؤة تحزن على صاحبها ويتغير لونها . ويقال أن لونها يتغير اذا بعدت عن موطنها . ويقال: ان الملائكة اذا بكوا نزلت دموعهم الى البحر فأصبحت لؤلؤيات ! وكثيرا ما قيل أن اللؤلؤ اذا ذاب في النبيذ في ليالى العشق أصبح سحرا . وسعادة للرجل والمرأة — يقال !

أما طريقة استخراج اللؤلؤ فهي أن ينزل الغواص أو الغواصة — أكثرهم من النساء — الى الماء ... ويصيدون حيوان اللؤلؤ

ويفتحونه ويستخرجون من بطنه حبات اللؤلؤ .. وحيوان اللؤلؤ يستغرق وقتا طويلا يصل الى السنة والسنتين في تكوين حبة واحدة .

وقد اهتدى رجل صيني منذ سبعة ترون الى انه في الامكان مساعدة هذا الحيوان على انتاج اللؤلؤ بصورة أسرع . فكان يفتح المحار ويضع فيه حبا صغيرا .. ذرة رمل أو ذرة من الحسارة أو الحصى .. وفي بعض الأحيان اهتدى الى شيء غريب فكان يضع حصة صغيرة ويرسم على هذه الحصة بوذا . ويضعها بعد ذلك في جسم حيوان اللؤلؤ .. ثم يجيء هذا الفنان العظيم ويغطي هذه الصورة لبوذا باللؤلؤ .. ويكون لحبة اللؤلؤ بعد ذلك سحرها المبيق في نفوس المؤمنين .. .

وجاء استاذ يابانى سنة ١٨٨٩ وقام بتطوير هذه الحيلة . هذا الاستاذ اسمه متسكورى . وأدخل في جسم حيوان اللؤلؤ حبات صغيرة من الصدف . ويجيء الحيوان ويغطيها بهذه المادة الفضية الشفافة .

* * *

ولكن رجلا واحدا استطاع أن يجعل « اللؤلؤ الصناعى » أشهر تجارة في العالم واستطاع أن يقنع العالم كله أن اللؤلؤ الصناعى أجمل وأروع . وأنه يصعب على أى انسان أن يفرق بين الاثنين . وفى ذلك الوقت كان التمييز صعبا . ولكن من السهل معرفة ذلك الآن بمجرد وضع اللؤلؤ في الضوء فيكون اللؤلؤ الطبيعى أكثر شفافية من اللؤلؤ المزروع في جسم حيوان اللؤلؤ . هذا الرجل

ميكوموتو الذى اشترك فى المعرض الدولى للؤلؤ بأكثر من مائة ألف حبة .. وصنع ناقوس الحرية الأمريكى من اللؤلؤ . وقدمه فى معرض دولى ..

وتد رأيت جزيرة ميكوموتو هذه فى اليابان . ورأيت ملايين من هبات اللؤلؤ . وأعترف بأننى لم امرأ أهمية هذا اللؤلؤ أو ضرورته لأهد . وتد كنت العب بهبات اللؤلؤ لعبة الجوز والفرد . نتجد بالعبات اللؤلؤ يجلسن على الأرض . وتد وضعت كل واحدة « قلة » من اللؤلؤ .. وأجلس أمامها والعب : جوز ولا فرد .. ونفتح محار اللؤلؤ .. فنجد أحيانا حبة واحدة وأحيانا حبتين أو ثلاثا .. وأنكر اننى كسبت فى هذه اللعبة الوف الهبات . ولا أنكر الان بالضبط أين نسيت هذه الهبات عندما سافرت من اليابان الى جزر هاواى الى أمريكا الى أوربا بعد ذلك .

فقط عندما رجعت الى مصر عرفت اننى انصت ثروة طائلة — ولم أكن أدري ذلك — فقد كنت مشغولا فقط بالفرجة والكتابة والسفر ، وهى جميعا أروع من كل ما فى العالم من لؤلؤ — واعتقد أن أكثر نساء العالم لا يرين هذه الفلسفة !



شجرة واحدة تكفي ، هزعا وانك تعرف!

بعد هذه الرحلة الطويلة في حياة الحيوان ،
هل له مستقبل ؟ هل ستتحول الحيوانات بعضها
الى بعض ، كان يكون القرد انسانا ؟ هل تتحول
بعض الزواحف مرة اخرى وتكون طيورا ؟ هل
ترداد الاصابع في اقدام الحيوانات ؟ هل الانسان
نفسه سيكون كائنا آخر ؟ ان عشرات الالوف من
السنين لم تغير من الحمار . فهو حمار منذ كان
حمارا . والخنزير كذلك . .

ان نظريات العلماء من مدرسة دارون قد لاحظوا التشابه الكبير
بين القرود والانسان . وقال بعضهم : أصله قرد — أى الانسان
أصله قرد وعلى ذلك فمن الممكن ان يتطور القرد فيصبح انسانا
في المستقبل . صحيح أن التاريخ لم يحفظ لنا حتى الآن تلك
القرود التى تحولت الى انسان . ثم انه ليس بين القرود فصيلة
واحدة تعرف النطق أو تعرف كيف تغير من أسلوبها في الحياة .
وكل ما يقوله العلماء هو أن مرحلة من مراحل تحول القرود الى
بشر ، قد فقدناها . . أو قد ضاعت منا . ولكن ليست هذه اجابة

.. انما هى اجابة تغرى بالتساؤل : ولكن لماذا هذه المرحلة بالذات ؟ من الذى حرص على اخفائها لكى يدوخوا بعد ذلك ؟

اذن يمكن أن يقال : بأن هذه الحيوانات لم تتحول الى حيوانات أخرى فى مئات الألوف من السنين فلن يطراً عليها أى تغير آخر .. لأن الماضى هو صورة المستقبل ، أو هو الحروف الأولى من الماضى والمستقبل !

علماء الجيولوجيا يقولون : اننا مقبلون على عصر جليدى آخر .. وان المناطق الشمالية والجنوبية من الأرض سوف تتغطى بالجليد .. وسوف يؤدى ذلك الى انقراض حيوانات أخرى كثيرة . تماما كما انقرض حيوان الماموث عندما هاجر الى الشمال فمات من البرد .. وفى نفس الوقت استطاعت حيوانات أصغر حجماً وأضعف قوة من التكيف مع البيئة فعاشرت . فالقوى الذى لا يجارى البيئة يموت ، والضعيف الذى يجارىها يتقيها ويعيش . انها قاعدة فى الحيوان وفى الانسان أيضا !

* * *

ثم هذه الزواحف الضعيفة هى بقايا مملكة هائلة كانت تعيش على الأرض ، هل هى أيضا سوف تنقرض .. علماء الجيولوجيا يقولون : هذه نهايتها لا محالة . ولكن لماذا ؟

الجواب انه يجب أن ننظر الى : الظروف الحيوية .. أو الى البيئة الحيوانية والنباتية والانسانية والجوية أى الحياة (الاجتماعية) أو (الجماعية) للحيوانات معا .. ولسنا فى حاجة الى أن نساير الى غابات الامازون الهائلة أو الغابات الهندية أو الواحات الافريقية والاسيوية كما كان يفعل دارون وبقية العلماء فى القرن التاسع عشر .. وانما شجرة واحدة تكفيك . هزها .

وأنت ترى الفراشات والحشرات المتسلقة : هذه الشجرة مثل فنان في يد قارئة الطالع .. مثل كوتشينة يلعبها قارئ الحظ .. ولكن هذه الشجرة تستطيع أن تعرف كيف تتعايش هذه الكائنات معا .. أو كيف يتربص بعضها ببعض أو يعيش بعضها على بعض .. نظرة واحدة الى شجرة تدلك على مستقبل حياة هذه الكائنات، معا ومستقبلها مع الانسان — وهو الأهم . فلا يزال الانسان هو الذى يحدد لهذه الكائنات أعمارها ومستقبلها . فمثلا في الهند : الثعابين تعيش على الفئران ، والفئران تعيش على القمح وعلى القمح يعيش الانسان .. اذا قتلنا الثعابين زادت الفئران واكلت القمح وأرهقت لانسان .. واذا قتلت الثعابين والفئران وانقردت الحودة بالقمح جاع الانسان . واذا قتل الانسان الحودة أيضا توفر له القمح .. ولكن في نفس الوقت اذا زاد عدد الناس ولم يجدوا القمح مات الانسان .. انها سلسلة طويلة من الكائنات يعيش بعضها على بعض . والمستقبل في يد الانسان .

مثلا : البعوضة تنقل الحمى الصفراء . يقضى الانسان على هذه البعوضة باستخدام المبيدات وباستخدام وسائل العلاج عانى الانسان وماتت هذه البعوضة أو انقرضت !

واذا نظرنا الى الانسان القادر على كل الحيوانات لم نجد هذا الانسان يفوق الكثير من الحيوانات من الناحية الفسيولوجية — أى من ناحية وظائف أعضاء جسمه . فهناك شبه كبير بين الانسان والقرود والحصان والضفدعة والأرنب . أو بين الانسان والحصان في نمو الجنين وفي الحمل والولادة وفترة الحضانة الطويلة .. فالانسان ينمو ببطء .. ورغم هذا التشابه فان الانسان هو الأقوى .

وأهم من ذلك أن الانسان لا يزال أكثر الحيوانات الكبيرة عددا .

مقد أعلن المعهد الدولي للزراعة في روما عن عدد الحيوانات الكبرى على الأرض بعد الحرب العالمية الثانية فكانت هكذا : في العالم ٧٠٠ مليون بقرة و ٦٠٠ مليون من الأغنام . و ٣٠٠ مليون خنزير و ١٠٠ مليون حصان .. ومثل هذا العدد من البشر أو أكثر . فعدد سكان العالم حوالى ألفى مليون نسمة .

ومن المعروف عندنا أن خسائر الانسان في الحرب العالمية الثانية كانت هائلة . لاشك في ذلك . وأن هذه الخسائر تساوى الدموع التى سالت على خدودنا حزنا على ما أصاب الانسان على يد الاتسان . ولكن خسائر الحيوانات في هذه الحرب كانت أضعاف خسائر الانسان .

في أمريكا ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ زاد عدد سكان العالم ١٠٪ .. ونقص عدد الحيوانات .. وزاد عدد الأبقار في أمريكا بسبب العناية الفائقة بمزارع وحظائر تربيتها . بينما نقص عدد الخنازير ١٨ مليوناً وعدد الأغنام ٢٦ مليوناً وعدد الخيول ١٨ مليوناً !

وفي أثناء الحرب الاهلية في الصين نقص عدد الطيور بمقدار ٢٠٠ مليون ونقص عدد الطيور في أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية بمئات الملايين حتى أصبح عددها حوالى ٧٠ مليوناً .. وسبب ذلك أنه لم تكن هناك أسواق للبيض .

والانسان حريص على هذه الحيوانات والطيور لأنها مصدر غذائه .. ولو وجد الانسان مورداً آخر للبروتين ، ما تردد لحظة واحدة في اباداة هذه الطيور والحيوانات معا . فكان بقاء هذه الحيوانات سببه أن علوم الكيمياء لم تتطور بدرجة كافية .. وعلماء الكيمياء في العالم هم الذين سيقرون ان كانت هذه الحيوانات

ستمعيش أو تنقرض . ولن يمضى وقت طويل حتى تتحول هذه الحيوانات الكثيرة الى حيوانات نادرة أو حيوانات للزينة !

* * *

ومن المؤكد أن الانسان قد قتل الملايين من هذه الحيوانات والطيور عندما اخترع السهام والنبال . . وأضعاف هذه الكائنات قد قضى عليها الانسان عندما اكتشف البارود . . وفي أمريكا ، وبسبب الزحف الى الغرب ، أحرقت المهاجرون الجدد الغابات والمرامى فهانت ملايين الحيوانات وانعدمت تماما . . فالجاموس الوحشى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية كان عدده يبلغ ستين مليوناً أى ضعف عدد سكان أمريكا فى ذلك الوقت . فأين هذه الجواميس الآن ؟ انها فى حدائق الحيوانات فقط ؟ . . وهناك نداءات كثيرة من جمعيات انسانية تطلب الرحمة بهذا الحيوان . ولكن هذه الجمعيات نفسها لا يتوقف اعضاؤها عن أكل اللحوم . . اذن هذه الجمعيات لا تطالب بالابتناء على الجواميس الا خوفاً عليها من التلاشى . . ولو كانت هذه الجواميس بالملايين ما طالب أحد بالحرص عليها !

وهناك حيوانات أخرى سوف تبقى شيئاً قليلاً . ولن يكون عددها بمئات الألوف أو الملايين . لأن الذى يحدد وجودها هو احتياج الانسان الى الفرجة عليها . . مثل كل حيوانات حديقة الحيوان : الأسود والنمور والضباع والذئاب . وهذا هو أحد أسباب اقبال الناس على حدائق الحيوانات . فالناس يذهبون لرؤية هذه الحيوانات فى الأقفاس لأنهم لن يروها فى أى مكان آخر . . ولذلك لا توجد حديقة حيوانات فى أواسط أفريقيا قد حوت أقفاصاً للقرود . . لأن الناس يجدون القرود على الأشجار وفى الشوارع !

وبعض الطيور قد طال عمرها لنفس السبب . أو لأسباب أخرى جمالية . فالببغاء وطيور الكنارى قد أبقي عليها الانسان لأنها

جميلة الريش رشيقة الحركة أو لأن لها أصواتا جميلة . وكذلك عاش الطاووس . . ولا يذكر أحد في كل العصور أن أحدا أكل الطاووس لأنه نادر الوجود وهو لذلك غالى الثمن . فقط في إيران واثناء مهرجان نورش والاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على انشائه للدولة الفارسية . في هذا المهرجان تقدمت إيران للملوك والرؤساء لحم الطاووس . . والطاووس اشترته إيران وبعثته الى مطعم ماكسيم المشهور في باريس وحملته الطائرات ساخنا من باريس الى مدينة برسبوليس في مخيمات الملوك والرؤساء - ولو قدوموا الى الطاووس في سندوتش ما أكلته . لكن في هذا الجو الخيالى ومع الألوان والموسيقى والأكواب من ذهب ، وعلى مسمع ومرأى من كل رؤوس العالم ، نلابد أن يكون طعمه لذيذا وأن يكون له مثل السحر في الجسم والنفس . . ومن المؤكد أن هذا هو آخر عهد الانسان بالطاووس محشوا بالفسق والصنوبر وأبى فروة !

* * *

أما بقية الطيور النافعة للانسان أى التى تأكل الديدان الضارة والحشرات في الحقول ، فانها أخذت في الانقراض . سبب ذلك : الهواء الفاسد في المدن والمبيدات الحشرية في الحدائق والحقول. ان هذه الطيور رغم حرص الانسان عليها ، لأسباب مصلحة أو انسانية أو جمالية ، فانها سوف تنقرض . لماذا ؟ لأن الانسان إما أن يعيش أو تعيش هذه الطيور . طبعاً لابد أن يعيش الانسان - كما عاش دائماً - على جثث غيره من الطيور والحيوانات والانسان أيضاً !

فقط كل الكائنات التى تعيش في أعماق البحار قد عاشت لأنها بعيدة عن متناول الانسان . ولكن هذه الكائنات لن تظل وقتنا طويلاً بعيدة عن الانسان . فإذا اقترب منها ، كان الموت قريباً أيضاً . وسوف يجيء دورها طبعاً .

إذا كان الإنسان حريصاً على الحيوان لأنه مصدر غذائه وكسائه
ووسيلته في الانتقال ، فإن هناك حيوانات رغم ذلك قد ماتت .
الخيول مثلاً : كانت وسيلة الانتقال للإنسان . وكان الحصان إحدى
أدوات الحرب . وقد حاول الإنسان في الحرب العالمية الأولى أن
يدفع بالحصان لخوض غمار معارك الفرسان وكانت معارك
انتحارية . وفي الحرب العالمية الثانية ابتعدوا به تماماً . . وفي
الحروب القادمة ، لن يكون للحصان وجود . والحصان الآن لم
يعد أداة النقل والمواصلات في العالم . ولذلك فلن يعيش طويلاً إلا
في السيرك والإفصطبلات سباق الخيول . أى أن الحصان سوف
يبقى لأسباب رياضية وجمالية . .

وفي القرن الماضي أنشأت كل من بريطانيا وأمريكا إصطبلات
للتقاعد . فالحصان الذى تقدمت به السن ، وجاء الإرهاق فخلع
أوصاله ، لا بد أن يستريح في حظيرة حتى الموت مثل كل الناس !
ولكن لن يتسع وقت الإنسان لمثل هذه الرقة . فسوف تموت الخيول
في الحقول وفي السيرك وبعد ذلك يكون لها تقصص في حدائق الحيوانات
الى جوار الحيوانات النادرة !

حتى الأغنام . . سوف يجيء دورها فإذا استطاع الإنسان أن
يحصل على صوف جيد دون حاجة الى الأغنام فهذه نهايتها ، لأن
الإنسان قد اخترع الخيوط الصناعية . واستطاع أن يضع خيوط
الصوف الصناعية في المواد الكيماوية لتعيش أطول وأتعم وأكثر
ليونة . بل إن بعض الخيوط الصوفية الطبيعية عندما وضعت في
المواد الكيماوية نمت . ومعنى ذلك أنه يمكن تنمية الخيوط الحيوانية
دون حاجة الى الحيوان نفسه . ولكن الخيوط الصناعية ما تزال
أقل جودة من الخيوط الطبيعية . ولكن مع تقدم الكيمياء سيصل
الإنسان الى خيوط أقوى وأجود وأكثر نعومة ولعنا . فإذا وصل

الى ذلك ، انتهت مهمة الأغنام التى عاشت للانسان وعاشته وماتت من اجله عشرات الالوف من السنين . واتخذت مكانها المتواضع فى متاحف التاريخ الطبيعى أو أرسلت من ينوب عنها فى حدائق الحيوان الى جانب الزرافة والغزالة والقرد !

ولا تزال هناك مشكلة أمام الانسان هى التى ستجعل الاغنام والأبقار والطيور اطول عمرا : وهى أن الانسان لم يجد حتى الان مصدرا بديلا للبروتين الذى يجده فى اللحوم . ولذلك سوف تبقى هذه الكائنات مصدرا وحيدا للحم . وهناك نظرية تقول :

ان الانسان اصبح أقل ميلا لتناول اللحوم من أى وقت مضى . . صحيح أن الانسان كلما أصبح مقتدرا اشترى لحما أكثر . ولكن هذه النظرية معناها : ان الجياع أقل تناولا للحم . ولما كان عدد الجياع أكثر من عدد القادرين ويزدادون بمرور الوقت فان عدد الذين يأكلون اللحوم سوف يكون أقل . أو لن يزيد عددهم مما يجعل عددا أكبر من الأغنام والأبقار والطيور ينعم بالحياة . ولا بد أن يدخل فى حسابنا أيضا أكثر من الف مليون نسمة لا يأكلون اللحوم فى الصين والهند .

وإذا نظرنا الى ما أكله أهل باريس مثلا فى ١٨٨٩ نجد أن الفرد كان يستهلك ١٥٤ رطلا فى السنة . وبعد ثلاثين سنة نجد أن الفرد أصبح يستهلك ١١٠ أرطال . . بينما يتضاعف ما يسلكه الفرد من النبيذ فى نفس المدة !

وفى امريكا كان الفرد يستهلك فى سنة ١٩٠٠ ما يعادل ١٥٠ رطلا فى السنة . ولكن فى سنة ١٩٣٨ هبط ما يستهلكه الى ١٢٥ رطلا . وفى الحروب يزداد استهلاك الفرد . . وبعد الحروب يهبط الاستهلاك .

فهذا الاعراض عن اكل اللحوم هو الذى يكسب الحياة لملايين
الابقار والاغنام والطيور .

ولكن تقدم الكيمياء ونشوب الحروب هو الذى سيهلك هذه
الكائنات . فكل هذه الكائنات لها أعمار مربوطة في أصابع الانسان،
ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها .

* * *

ولكن يجب الا نتصور أن الانسان هو أقوى الكائنات : الجراثيم
لثوى منه . . ثم أن الانسان عندما لم يطلق أن يتحمل ضغط الجو في
البالون الذى أطلق في أوروبا استطاعت بطة وديك أن يرتفعا دون
أن يصابا بأذى من الهواء والضغط . . وعندما أطلق الانسان قنبلته
الذرية على جزر بيكينى : عاشت الخنافس والخنزير والماعز .
واخترقتها الأشعة ولم تمت . . ثم عاد التراب النرى فغطى هذه
الحيوانات ولم تمت في حينها ولا بعد ذلك بسنوات . . ولم يكن في
قدرة صانع القنبلة الذرية أن يواجه الشماع والتراب .

من يدري ربما انقرض الانسان وجاءت كائنات أخرى من كواكب
أخرى تتفرج على هذه الحظيرة الكبرى التى اسمها : الكرة الأرضية
. . تماما كما تذهب تتفرج الآن على ما أحدثه بركان فيزوف بالقرب
من نابلى عندما تجمد الشعب كله وتحولوا الى تماثيل حجرية .

من يدري ربما فعلت كائنات أخرى أكثر عقلا ووضعتنا في حدائق
للحيوانات الأقل وراحت تتفرج علينا كما تتفرج الآن في متاحف
التاريخ الطبيعى على الجماجم والأعمدة القفرية للانسان الأول —
ربما !

قُرود في كل مكان!

وكنت أفضل ان تكون الصفحات الناية في
أول هذا الكتاب .. فهي تصف الحيوان وسلوكه
دون تحفظ .. أي دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى ان
يفعله الانسان .. ولكن الحضارة تجيء وتقيّد
الانسان وتضع الفرامل والضوابط والمقواعد
والحلال والحرام واللائق وغير اللائق على كل
مشاعره الحيوانية والانسانية ..

ولكن بعد أن عرفنا جوانب من حياة الانسان يمكننا أن نعرفها
أعمق وأوضح اذا عدنا عشرات الألوف من السنين .. أو اذا
ذهبت الى حديقة الحيوان .. ففي الحديقة نجد الانسان متخفياً
وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان أكثر صراحة ..

لأن الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هي دليلنا الذى لا يخطئ الى فهم
الانسان مرة أخرى ..

فان كان قد فاتك أن تفهم الانسان من مئات الصفحات
السابقة ، فهذه هي فرصتك فى أن تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك
ونفسك ..

فإذا شعرت بالخجل فلأن الحيوانات لا تخفى ما تشعر به هي
.. وما تشعر به أنت ا

* * *

وإذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراعى
ويقول : يا حيوان ماذا داعى لأن تلتفت وراعى لترى ماذا سيحدث ..
فكل ما فى الحديقة حيوانات : التى فى الأبناس .. والذين
خارجها .

وإذا وقفت أمام قفص التروود ورايت القردة تفلى ابنتها
الصغيرة فلا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف. أما فى
المدينة كالكواير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل
اليه عقل الانسان .

وإذا أنت ألقيت ببعض السودائى وتزاحبت عليه التروود
وضحك طفلك الصغير ، فأظن أنه لا داعى لأن تضحك أنت .
لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان أو المصنع الذى
تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص أنسى من قفص التروود .
وأنت محكوم فى داخل القفص بتوائين ولوائح وقواعد ومخاوف ..
وإذا أشار رئيسك فى العمل بالعلوات أو الأرباح فاتك تغفّر مثل

هذا القرد وأكثر .. وليست العلاوات الا انواعا من الفسول
السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القرود ..

وإذا رأيت القرد — أمام كل الناس — يركب ظهر الأنثى .
فليس القرد قليل الأدب ، ولا نفسه انفتحت لجرد رؤيتك . ولكنه
في حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والانسان أيضا . والناس
لى جو الخوف يتمسكون .. انهم يواجهون الموت بالتبسات ،
ويواجهون الموت بغريزة هب ، البقاء .. والبقاء من طريق
الجنس ..

وإذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون انسانا . فمن
المؤكد ان الانسان له ماض . وهذا الماضى مازال حروفه
الغامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القرود .. لماذا لم يكن هذا
القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . وإذا كان
الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين ..
فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال
مصونة مكونة فى افاصيل القرود ..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه
العالم نزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من أروع الكتب
التي صدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة .

وإذا كان هذا الكتاب لم يلقى التأييد الكامل من علماء الحياة
والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم — عادة — لا يتفقون على
رأى واحد .. ولكنهم أمام هذا الكتاب اتفقوا على انه خلاصة
دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة
وجديدة ولا بد أن تدير آلاما من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد
ذلك فى امكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القردود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له صفات قريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته .. ويبضى النصف الثاني من عمره يحاول أن ينسى هذه المعاني . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة أنه هائل حثيثة ، ولكنه أكثر الحيوانات شراهة من الناحية الجنسية ، فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند العنقاء لا يواجه الناه ..

والحيوانات لها مواسم . والإنسان ليست له مواسم للتبيلات والحمل والرضاعة والولادة .. لكل وقت عنده هو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضروري أن نعيد النظر في الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيوانات الراقية مثل القردود لتعرف كيف عاش هذا الإنسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التي نراها اليوم .. ولا تفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر أنه في إحدى حدائق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير أليف يظهر في الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه في قفص على أفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أقرض نادر . ولا نعرف أسمه العامى .. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء .. وأنف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب اننادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـ ٣٦٦ نوعا من السناجب التي عاشت

في العالم كله . ولا بد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما وأصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولا بد أنها مرت بظروف غريبة . وأنها توافقت مع هذه الظروف . وأصبحت لها ألوان وأشكال وعادات مختلفة من بقية الأنواع الأخرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الإنسان — هذا الفرد العريان — نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات الى مرحلة أكل فيها أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات الى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التناط الثمار الى صيد الوحوش .. ثم الى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجليه .. واستخدم يديه في صناعة أدوات حياته ..

وان كان الإنسان مثل بقية الحيوانات الثديية التي يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ نادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناسبة في الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية — أي التي لها أنداء ترضع بها أطفالها — تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف في حفظ درجة الحرارة في الشتاء . والوقاية من حرارة الشمس في الصيف .. والوطواط وهو طائر ثدييي عريان في معظم أماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائبة ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدراجيل .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الإنسان ..

والإنسان في تاريخه الطويل فقد القدرة على الأبصار . وفقد قوة السمع والشم . أما الحيوانات الأخرى وخصوصا آكلة اللحوم مثل الإنسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع

والشم . ففى سنة ١٩٥٣ أجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على انشم ، فاثبت العلماء أن قدرتها اقوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة ..

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم تائل أيضا . وبعض الحيوانات لا تقتل مجرد القتل . وانما لأسباب وجيهة : الجوع .. أو جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التى استؤنست ما تزال عندها غريزة الصيد .. والانسان أيضا . فالكلب الأليف يحب أن يخرج به سيده الى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهى لعبة لأنها ليست خطيرة . وكذلك القط الذى تلقى اليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها .

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة فى الصيد .. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. وإذا ما هربت وجدت أمها عددا آخر من الأسود . والنئاب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فانها تمشى فى طابور طويل . وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت .

هناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القرود الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفى نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره .

ويبلغ المعقل نضجه التام في الثالثة والعشرين أما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة .

والانسان لم يستمتع بهذه الطفولة الا بعد عادات أخرى اكتسبها . . . وهي ان الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لان المرأة في حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة في البيت مع أطفالها . والمرأة في البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك اتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وان تبقى وفيه مخلصه له اذا ذهب للصيد في الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى الا بعد ان كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى الى الارتباط والارتباط أدى الى قيام وحدة من رجل وامرأة وأنشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والأطفال . . . واذا كان من طبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالانسان أيضا حيوان متعاون ولكنه حيوان منافس أيضا . وكثيرا ما أدى به التنافس الى القضاء على الأسرة وعشرات الأسر . . . واذا كانت رغبة الانسان في التعاون هي التي جعلته يخلق الأسرة ، فان رغبته في التنافس هي التي جعلته يبترك الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى . . . وأكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة في الدفاع عن النفس وفي القتال . . . وجعلته يشعل النار في عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة . . . تأريخ الانسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الانسان لأخيه الانسان . . .

أما لماذا سمي الانسان بالقرود العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول ان طفل القرود عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما . . . ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والانسان لأن طفولته

طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين ..

ومن المعروف أن الجنين في الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك في الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة في الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطي معظم الجسم .. كالقروذ تماما ..

ويقال أيضا أن الحيوانات التي يغطي جسمها بالشعر . تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الانسان يعيش في الكهوف .. ويقال لأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه .. ولأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول ان الانسان عندما اخترع النار لم يعد في حاجة الى أغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر .. وانه قادر على أن يجد الدفء في ضوء الشمس نهارا . وان يجد الدفء أمام النار ليلا .. وأن هذا الدفء هو الذي أغناه عن حاجته للشعر الذي يغطي جسمه كله .

ويقال ان الانسان قد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وانه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان بصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبتئ الا راسه على سطح الماء .. ولذلك — مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى — أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد في تفسير خلو جسم الانسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الأخرى ..

وربما كان لشعر تفسير جنسى آخر .. فمن الملاحظ أن الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الإناث ولذلك أصبحت

الانثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم أيضا . بينما يحرص الرجل على أن يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربه ولحيته .. ويتترك الشعر في صدره وتحت أبطه بينما تحرص الأنثى على أن تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة الناعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المرأة . ولا معنى ذلك أن المرأة احبت الشعر في جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الانسان احب الواقع .

نعود مرة أخرى الى قفص القرود الذى نغف أمامه فى حديقة الحيوان .. ان القرود لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع أحذية والى مصمم ازياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسويان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان أن يكون شهوانيا .. وان يكون مشتتلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون له أسرة وأولاده .. يهرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا تلقا خائفا فى قفص محكم معتد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التساريخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها انقرود على الأشجار وتحتها وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت سساتها .. وتماومت متحركات يداها واهتت عقلها أيضا .. وسكنت المكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

وأصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرد وان كان هو يتوهم انه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الأتفصااص لغيره .. ولنفسه .. ويجعل أقتناصه هو مكيفة الهواء اذا كانت على الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط اذا كانت في طريقها الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والمفأس والسيف . وما يزال يقتل . فقد أصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو — اذن — لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته في القتل . وانما هذه الرغبة هي التي طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها وأهدافها .. والاتسان — هذا القرد العريان — كان صيادا في الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخنود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الانسانية لم تضع الغرامل على رغبات الانسان . وانما رغبات الانسان هي التي أشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع اليها ، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود اليها . ويبدأ الانسان هذا الشوق الجنسي في سن مبكرة . ثم يعرف للعب الجنسي . والمداعبة . والمطاردة . والصيد . والانتباه الجنسي والهياج الجنسي .. والاشباع ..

والانسان حيوان شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على ان تكون له أسرة .
أى تكون له امرأة واحدة . يحرص عليها ومن الضروري أن
تحرص هى أيضا عليه . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من
الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه
انثاه وأولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين .
ولابد من حماية لها أثناء غيابه .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الأنثى .
وعرفت الأنثى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان .
لأنه عند غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى ان
يحتفظ بهذه الأنثى . ويصبح لهذه الأنثى الحق فى أن تعيش فى
كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين . .

ولكى يبقى هذا « المعتد » محترما مان على الذكر أن يحترم
عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو
وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضلات
الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وانما عقله هداه الى
أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه أيضا لاستخدام
أسلحة أخرى للمقاتل والدفاع عن النفس . . وهداه الى وضع
حدود اجتماعية لتحميه وتحمى نريته . وفى أثناء فترة الصيد
هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر
على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى
مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وان يصنعها أيضا .
وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى . .

وتمكن الإنسان — خلال مئات الألوف من السنين — أن يصلب عوده . وأن يتف وتعلم الإنسان أن يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هى الشريكة . أو هى اللصيقة . أو التابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج الا فيما بعد ذلك بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الإنسان والقرد مثلا ..

ففى فترة الحمل عند القرد — اقرب الحيوانات الينا — تقرب الأنثى من كل صلة جنسية . بل انها تبعد تماما عن الذكور . فيما عدا الإنسان — هذا الشهوانى — لا يقوى على الحرمان الجنسى طويلا . ولذلك فمن الممكن ان يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك أراد الا تتجه زوجته الى ذكر آخر .. وكان الأنثى أرادت هى الأخرى الا يتجه الذكر الى أنثى أخرى . فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الإنسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة .. فهو اذا عاتق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصبح الجسم الإنسانى شديد الحساسية لللامسة . وفى هذا الجسم الإنسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والإنسان اكتشفها واعتاد عليها ويلهبها كلما أراد ذلك .. ولذلك فى استطاعة الإنسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصابعه على الجسم الإنسانى العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الإنسان : الشفتان ..

وقد أعلن كثير من العلماء أن الشفتين ليست لهما ضرورة

خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفيتين معنى خاصا . . ويقول علماء آخرون : ان شفتى الانسان قد كبرت وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة . أى أنه يرضع لدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات أقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين أنها مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد . . فانها حادثان بلا طبقة شحمية . فإذا اقترب منك القرد وتبلك فإنه يطبع فكيه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبلة من شفتى انسان ملتصقة ومندمجة وعميقة أيضا . ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين . .

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين فراعين تتعانقان . . وتنتقلان الحرارة والوهج الجنسى الى كل الجسم بل أن هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . ويسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها ، فان تسليم الشفتين هو موازنة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى . . وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فان الطفل الكبير يرضع أيضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

ويعد الشفتين تجء الأذن . .

يقول بعض العلماء ان أذن الانسان كانتا طويلتين — كأذني الحمار مثلا ثم ضمرت الأذن بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه . . وهناك شبه بين أذن الانسان وأذن القرد .

ولكن هناك خلافا واضحا : هذه الشحمة التي تتلقى من الأذن .. من أين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لها فائدة . ولكن الإنسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين في الاثارة الجنسية .. امسك الأذنين بأصابعه أثناء اللقاء الجنسي . وأعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشحمة هذه الدلالة الجنسية . وأصبحت جرسا يضغط عليه فماذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتفتتح ..

أما النهدان فهما عند أنثى القرد العريان متضخمان .. وتتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة . وضرورة لها . ولكن اثناء القرد ليست في ضخامة اثناء المرأة . على الرغم من أن اثناء القرد أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة المعنيفة عند صغار القرد لم تؤد الى تضخم نديبي القردة ، ولكن أنثى الإنسان لها نهذان يتضخمان وهذا التضخم ليس بسبب الأمومة ، ولكن بسبب الاثارة .. فالنهذان جهاز تثبيبه جنسى أيضا . اعتاده الإنسان واستراح اليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة في الأنف كثيرة . وإذا كانت خاصة الشم عند الإنسان قد ضعفت فان هذه الحساسية تقوى عند العنق . ويصبح الأنف قادر على أن يشم وعلى الاستمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق المعطور ورائحة الجسم الإنسانى نفسه .

هذه الاختلافات في الهيئة والسلوك الإنسانى قد اكتسبناها من مئات الألوف من السنين .. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل

الذى نمتاز به عن الحيوانات الأخرى ولكن ما الذى تغير فى الإنسان الآن .. هل ما يزال الإنسان كما كان من مئات الألوف من السنين .. هل نحن مختلفون عن أجدادنا فى الرغبة والانجاء والاشباع ..

لم يتغير شيء .. وإنما الأسماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والمزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد .. الأصول .. التقاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكة . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية . متى ظهرت . متى أصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغريب فى حياتنا ..

فبين الرجل واثناه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عادات . إلا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الأنثى أن تمشى عارية . والرجل أيضا . ولكن عندما يظهر شخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المرأة . ويسعد الرجل عن زوجته ..

وإذا كان الرجال معا يذهبون الى الصيد ويتركون النساء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصيد أيضا . هذا الاختلاط حتم إقامة الفوارق والحدود . وعرفت الإنسانية معانى العيب والحرام والشرف . أى أن المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد أسرف الرجال في وضع الحواجز واقامة الجدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفي المصور الوسطى كان الرجل يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضع على الحزام قفلا يحتفظ بالفتاح في جيبه . . . عاما . . . وعشرين عاما . ويترك في الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمتين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينمان فيه . (وفي كل اللغات العالمية نجد أن كلمة « نام » الرجل مع المرأة أى عاشرها كنها زوجته) . . . أنن لقد عرف الانسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية في كل تصرفاته الجنسية والعاطفية . . . بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا .

* * *

ولو نظرنا الى مكان مزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هناك حرصا شديدا على الا يصدم احد بأحد . . . أو يصطدم رجل بامرأة . لأن الملامسة لها معنى جنسى . وأن كنا في حياتنا العادية لا نقول ذلك . وإنما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق . . . هذا سوء تربية . . . ولكن المعنى الحقيقي أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وإنما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه . . . وإنما من حق غيرك ، وأن كانت هذه الملامسة مسموحا بها في أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزي والطبيب . . . ولو فرضنا أن سيدة

اصطدمت برجل في الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الأدب . . ولكن لو ذهبت الى الطبيب نفسه للعلاج فانها تنزع ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه أحد بسوء الأدب لأنه في المرة الأولى لم يكن له حق . و في المرة الثانية له هذا الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء في كل مكان . كان من الضروري أن تخفي المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الووف المسنين . ولكن عندما أصبح « العمل » ضرورة حيوية . . خرجت المرأة وأخفت ملامحها أيضا لأن تكشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين أو باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست ان تضم ساقها . والا تفتحها حتى تعناد على ذلك . . لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس . . وكذلك المرأة عندما تضحك فانها تحاول الا يكون صوتها عاليا . وأن نخفي ضحكتها وراء يدها . . أو تنحني لتخفي ضحكتها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ، ويجب الا تكون عامة !

ولكن ما الذي تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

ان ملابس المرأة تخفي جسمها ولا تخفيه . . بل ان الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تتستر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسي .

وكذلك أرداف المرأة . فهي حريصة أيضا على إبراز الردفين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا تستخدم الأرداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما أن المرأة تحقن صدرها بالشمع . فانها تحقن أردافها أيضا .

فكأن المرأة لا تخفى جسمها . وإنما هي تخفيه ليظهر أكثر .
فلمماذا ؟

نعود الى جبالية القرود : ففي عالم القرود نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفه الى الاستسلام للذكر القوى أو الأنثى القوية . وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى . ويعتليه الحيوان الأقوى والخوف في جبالية القرود سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الأنثى . ولا يملك الضعيف في هذا الزحام الوحشى الا أن يعطى نفسه لن هو أقوى منه . وليس لدى القرد الا جسمها .. فتضعه أمام الذكر الأقوى !

وفي عالم الانسان أيضا . فالمرأة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفي نفس الوقت تذويب رغباته العدائية أو العدوانية .. الى مجرد رغبة .. الى اعجاب .. الى اشتها .. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل . وتنجو أيضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمت الحياة الزوجية وانهدمت الأسرة الانسانية . فخرج المرأة الى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين .. فكأن المرأة عندما تخرج الى الشارع جميلة أنيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول : من الممكن أن تحبنى ولكنى بعيدة جدا !

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. أى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق أشباع العيون تقطع أيديهم .. وإذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد أن الأيدي ستكون قصيرة — وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه المنوعات والقيود ، ولماذا هذه الأثارة في نفس الوقت ، لماذا تفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المخفأة في نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فإذا سال لعبه ، أصبح حيوانا ذاول ذليلا .. وكان المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الذئب الى كلب .. الى قرد عريان .. الى عريان .. فكان المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا !

وقد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة فى النظر والبصيرة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفتة .. وتصبح المتعة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة أيضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. أنهم يقومون بكل شئ بالنيابة عنا .. أننا نشاركهم فقط بعض اللحظات . بل أننا نعلن عن الأفلام العاطفية باظهار البطل والبطلة

في حالة هناق حار . ولا أحد يسأل نفسه : طيب هو يعانقها ويقلها
واحنا أخذنا ايه ؟ . .

لا شيء طبعاً . ولكن أثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة
وننسى أن الذي أمامنا هو تمثيل في تمثيل . . ولكن النظر متعة . .
ولذلك عندما يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب . .
ونعالى آهات الحرمان . . آهات صاحب العين النصره واليسد
القصيرة !

وفي الصحف والمجلات صور عارية . . وفي الروايات تصص
عارية . . وصفحات غرامية من نار . . كل هذا نبحت عنه . لأنه
لذة . ومنعة . ومشاركة بالعين فقط . . !

وفي هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل انسان
أسرة أيضا !

وفي البلاد التي يسمحون فيها بالدعارة . . نجد أن هذه الدعارة
تحمي الأسرة أيضا . فالرجل يذهب الى إحدى الغانيات بلا حب
ولا مقدمات؛ فتمتد يده دون أن يراها . . أى يكون طويل اليد
تصير النظر . . ولذلك لا يفكر في أن يتزوج غانية . . أو يترك
زوجته وأولاده وبيته من أجل غانية . . أو من أجل واحدة تملا
الذراعين وتسقط من العينين .

والدعارة هذا العفن الاجتماعي والأخلاقي — هو أحد السموم
التي يحمون بها الأسرة — أو كأنه أحد الأسفدة العضوية التي
يستخدمونها لتغذية التربة ؟ .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية . أو
الرخيف منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية . فقد

حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف ..
وحاولوا وضع الأطفال في مكان عام دون حاجة الى أم أو أب ..
كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرا الانسان عنها ولكن لم
يتحمس لها . فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة
الواحدة والطفل والبيت الخاص . وأن تكون له خصوصيات . وأن
تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وأن يكون له أطفال . وأن
يقولى هو تربية اطفاله وهذه هى احدى مشكلات الأسرة واحد
أعباء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست
مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقروء منها .. وإنما هى مشكلة
انسانية جديدة ومتطورة كما سنرى !



من قلوب الأمهات ! خروجت موسيقى الخنازير

عندما يولد القرد، فإنه يمسك بأمه . يمسك بشعرها وجلدها . وينملق بها . كأنه تدرب على هذه العملية في بطن أمه ومنذ وقت طويل . . ولا يستطيع الطفل الانساني أن يفعل ذلك الا بعد وقت طويله .

فالقرد الصغير لا يحتاج من أمه الى تربية أو تكريب . . ثم انه ليس عبثا يصيبها بالقرف والفيلين وينخفض ضغط الدم عندها . . وينفخ صدرها . . ويعتمد عليها . .

أما الطفل الانساني فإنه عبء قبل أن يولد فلا تكاد أمه تحبل فيه حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه تذيئة . . ولا بد أن تصرح الأم بأعلى صوتها . ولا بد أن يبكي الطفل أيضا . ويحرص الأطباء على أن تصوت الأم وعلى أن يبكي الطفل . فإذا حدث ذلك تلفت الطبيب يتلقى التهاني من الأهل عاى أنه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تتوم أم القرد بقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تتوم بلعق المسائل الذى يفرق جسم

الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. أما الطفل الانساني فانه يولد عاجزا تماما على فعل أى شىء .. وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود ..

ولا بد ان قطع الخلاص على طريقة القردود كان أسلوب أجدادنا من الؤف السنين ، فيما عدا أنهم لا يأكلون الخلاص . ولا بد أن حاجة الأم الى مساعدة الآخرين في هذا الموقف ترجع الى مؤسسات الالوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته أيما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدها على ولادة الطفل والعناية به حتى تليق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانساني يبدا لبن الأم في السيولة النشطة . فاذا أعطت الأم ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح تائرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القردود ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان — هذا القرد العريان — مشكلة كبرى . فالطفل الانساني غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تساعده نهى تحمله على صدرها . وهى نضع ثديها في فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدي ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل ادخالها في فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفثيه بحيث تكون حلمة الثدي بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب أن تكون الرضاعة سهلة في الايام الخمسة الاولى ، واذا فشلت الأم في ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها . وهي لا تدري . ولكن عند الطفل أسباب وجيئة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يثمنس : ففمه الصغير مليان بالبن وأنفه الصغير ملتصق بصدرها .. ولذلك يجب أن نراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى ان صدر الأم — نهديتها — ليس جهازا للأمومة . وانما هو علامة من علامات الانوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر الى زجاجات المبن التي يرضع منها الطفل . فحلمة الزجاجاة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجاة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجاة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه . كما أن حلمة الثدى طويلة ممدودة تدخل بين شفتيه بسهولة تامة . بينما الطفل الانسانى يجد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على امسك الثدى بسهولة القروء .. فكان ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل .. !

وهناك ملحوظة هامة وتحتاج الى تفسير جديد . فقد دلت الابحاث على أن ٨٠٪ من الامهات يضعن اطفالهن الصفار اثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتد على الذراع اليمنى أكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التى لا تستخدمها عادة .

ولكن لوحظ أيضا أن ٧٨٪ من الامهات اللاتى يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل اثناء الرضاعة على هذه الذراع اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم .

وأن الطفل وهو جنين قد اعتاد على سماع دقات قلب الأم .
وعندما يولد الطفل عاجزا ضالعا في هذا العالم الكبير فإن الأم تعيده
الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى أحضانها في ذلك المكان الأمين
الذى يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد .. ودقات قلب الأم
هى الصوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن نيام . والمرأة
تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من
السنين .

وقد أجريت تجارب على اطفال صغار وضعوا في غرفة واحدة
في الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب — أى ٧٢ دقة
في الدقيقة — ف لوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولوحظ أيضا
أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد .. على
عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهاز تسجيل في غرفهم .
فهؤلاء الأطفال يبددون طاقتهم في البكاء .

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : اطفال في
غرفة بها جهاز يدق . ٤ دقة في الدقيقة .. واطفال في غرفة بها
جهاز يدق ٥٢ دقة في الدقيقة .. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل
عليه دقات قلب حقيقى .. ف لوحظ أن اطفال الغرفة الثالثة هم
لسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصدره القلب وليس
الرأس ، نشير الى أن هذه الحقيقة التى عرفناها اثناء الطفولة ..
فنحن نشير الى الأمن والأمان الى جوار الأم .

ولا بد أن تكون « مرجحة » . الطفل .. وهددته حتى ينام ..
سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم .. ولا بد أن هذا هو
الذى يجعله ينام .. وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه

يعيده الى هدوئه عندما كان في بطن امه .. وهذا ما نفعه نحن الكبار .

فلا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول أن يتأرجح به .. أو عندما نهز أرجلنا .. كل هذه محاولات لأن نهدي أنفسنا .. أو محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الام .

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التي يستريح اليها الشسبان هي موسيقى الدقات العالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المصنوعة من الجلد .. هذه الدقات تهر الأذن وتتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشسبان في العالم أسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغريب أيضا أن الكثير من الشسبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشسبان على أن يناموا أثناء العزف الموسيقى .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن أسزاحت أجسامهم وأعصابهم أيضا .. ان هذه الموسيقى قد أعادتهم الى طفولتهم .. الى قلب الام .. والى حنان النغم .. فناموا كأنهم أطفال صفار كأن موسيقى الخفافس قد صدرت من قلوب الأمهات!

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الأرض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . وبعد أربعة يستطيع أن يجلس في حجر أمه . وفي الخامس يمكن وضعه في مقعد . وفي السادس يمكن أن يجلس وحده وفي السابع يعتمد على أمه في الوقوف . وفي الثامن يعتمد على أثاث الغرفة في الوقوف . وفي التاسع يزحف . وفي العاشر تساعد أمه على المشي . وفي الحادي عشر يعتمد على أثاث الغرفة في المشي . وفي الثاني عشر يستطيع أن

يصعد السلم بيديه ورجليه وفي الثالث عشر يقف دون مساعدة .
وفي الرابع عشر تجيء اللحظة الكبرى .

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفي هذه الأثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادراً على أن يحفظ بسرعة وفي السنة الثانية يعرف ٣٠٠ كلمة وفي الثالثة ٥٠٠ كلمة وفي الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفي الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الإنسان انفراد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القردة على الكلام .

مَثَلاً : أتوا بقرد وجعلوه يعيش في نفس بيئة طفل إنسانى . وبعد سنتين لم يستطع القرد أن ينطق أكثر من بابا . . وماما . . . كوب . . وأن كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فإنه عاجز تماماً عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى أقوى من أجهزة الإنسان . . ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتى لا يكفى .

ولئن العقل هو الفارق بين الإنسان والقرد . وهناك طيور أندر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده . . ولكن هذه اللغة ضرورة عند الإنسان الذى كان يجب أن يخرج فى جماعات للصيد . وكان لا بد أن توجد هناك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصائدين . . فاللغة ضرورة حيوية عند الإنسان . .

والطفل الإنسانى ككل أطفال الحيوانات الشديدة له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من ألم . وبعض الطيور

لها صرخات أيضا . والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو اذا ظهر أمامه أو حوله شىء غير مألوف أو اذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب أو الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحبيه . وفي هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفهتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتسام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عند الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفهتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشهر الثالث ، فان البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فانه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . واذا عرف الطفل الضحك ، فان الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك أناس كثيرون اذا ضحكوا لا تعرف ان كانوا يضحكون أو يبيكون .. فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . واذا كنا نقول عادة : ان فلانا ضحك حتى بكت عيناه ، فممكن أن يقال

عن الطفل : انه بكى حتى ضحك . . فالطفل يبكى حتى يجيء احد .
فاذا جاء توقف عن البكاء . فاذا عرف هذا الذي جاء فانه
يبتسم . . ثم يضحك . . وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجأة
ويضحك . . نفس الملامح مع خلاف بسيط في لمعان العينين . .

وعندما يعرف الطفل كيف يضحك فانه يصبح لعبة الأبوين
والأقارب . . ويدخل الطفل مرحلة هامة من حياته . . مرحلة
الكائن الاجتماعى الصغير . .

والشبهبازى يبتسم ويضحك ويلعب مع مسفاره . .
والشبهبازى اذا ضحك فانه يمد شفثيه الى الامام . وهى قريبة
من الضحك الانسانى وعندما يخاف الشبهبازى فانه يسحب
شفثيه الى الخلف ويكثف عن أسنانه . فالحيوانات تضحك
وتلعب . والانسان ابرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب
. . وكلما كبر الانسان التسمت أمامه لمرص اللعب بأنواعه المختلفة
. . اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

واذا نحن نظرنا الى الشبان عندما يستمعون الى مطربهم
المحبيب . او يتفرجون على العازنين الذين يعشقونهم . نجد أن
هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صدورهم
ويمسك الواحد منهم الآخر . . انهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم
سعداء . ولكن الاتفعال اذا ما كان بالغ الشدة فانه يتحول الى
شعور بالألم . . فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وانما صرخات
بتصد تنبيه الآخرين الى أن هذا هو شعورهم واحساسهم . .
وانهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الألم . .

ولو اتينا بشباب أو شابة واجلسناها مع المطرب الذى هو فتى
احلامها فانه لا تصرخ ولا تشدد شعرها ولا تدق صدرها . .
فالصرخة ليس لها معنى هنا . لان الصرخة نداء الى الآخرين . .

لأن الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لا بد أن يسمعه انسان
آخر .. أو آخرون :

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ في الشهر
الثالث فجأة . وسبب ذلك أن الطفل يكون قد عرف أمه . والأم
المسادة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها
مصبيا أيضا ..

الأم التي تثبتسم لطفلها فأنها تهدئه . ولكن إذا فوجيء الطفل
بأن أمه تضحك بصوت مرتفع على غير العادة ، فإنه يرتبك ويضطرب
ولا يعرف ما الذي تقصده أمه

وإذا الأم امتعلت ضحكه أو ابتسامة ، فإن الطفل يدرك ذلك
أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرنها
الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد
الملاحظة . وأنه إذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم .
فماذا تغيرت لأي سبب فإنه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لا خوف . وعند المشبائزي علامات تدل على المودة .
ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الانسان
بالابتسام

سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فإنه يتعلق بأمه .
مساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها
لأول مرة ، فإنه بسرعة يعود إليها ويمسك بها . فالقرد الصغير
عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد
ويزداد وزنه وتطرده أمه فإنه يعود الى صدرها يتعلق به .. والطفل
الانسائي عندما يولد فإنه يكون عاجزا عن عمل شيء . وليس لديه

شئ يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لا بد أن يعتمد على الأم نفسها . وعلى اقتربها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجيء . والشمبانزى لا يحتاج الى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالانسان الصغير محتاج الى علامة الى اشارة تدل على أنه في حاجة الى معونة ومحتاج الى اشارة اخرى فيقول انه قد تحققت له المعونة وانه استراح الى ذلك . والابتسام هو المكافأة التي يمنحها الطفل لأمه . . فهو اذا ابتسم كأنه قال لها : شكرا . . واذا ابتسمت هي فكأنها قالت له : عفوا !

وابتسامة الطفل في الأسابيع الأولى تكون غير مركزة . . انها ابتسامة عامة . . ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عيني الأم . . ولو قدمنا للطفل في هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينان . . لابتسم لها أيضا . . وفي الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم . . وفي الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه . . وابتداء من هذا الشهر ينطبع في نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته . . انه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسؤوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . وأحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو . . أو الشخص المخيف . وهذا يدل على أن الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فان استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف . . ومهمة الأم هنا هي تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الانساني يتعلم بالتقليد والتلقين . . وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الاخرى .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هي ثمرات ليذور غرست في الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا أخلاقيا ، ليس في الحقيقة الا ما ترسب في نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب أن نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة أيضا .. كما أنه من الصعب أن نغير التقاليد والعادات التي ترسبت في طفولة المجتمع الانساني . لماذا ظهرت أفكار جديدة تهز القديم ، فإن القديم ، يقاوم ويتحمس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلهم من طفواتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجديد يسود مع بقاء القديم أيضا ..

وهناك مجموعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد .. هذه المجتمعات انهارت وانحلّت وابتعدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجردت طفولتها على ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة — كالانسان السعيد أيضا — هي التي تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحفظ من القديم بما ينفعها أيضا .. أي المجتمعات التي اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضي الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة .. كيف تفرس في نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذي يضره ويضر غيره ..

ولكن الإنسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو أدى ذلك الى ضرره .. يريد أن يعرف .. أن يمسد عينيه ويده .. وخيالاه .. ويلعب أول الأمر ، ثم يحول اللعب الى فن : رسم . نحت .. تمثيل .. موسيقى ؟

القرود والسلسلة! والقرود الخ!

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شديدة في أن تشمشم في كل ما تجده كأنها تريد أن تعرف : ما هذا ! ولماذا ! وهل الذي تجده شيء يصلح للأكل . والقرود هو أكثر هذه الحيوانات رغبة في الاستطلاع . أما الإنسان فهو أكثرها شهامة ويمكن أن يقال أن الإنسان حيوان « دباغ » أي يأكل أي شيء وفي أي وقت . .

وكلما أصبح الحيوان متخصصا في طعام معين ، أصبح عالمه ضيقا محدودا وفي نفس الوقت خائفا أيضا . . فالحيوان الذي يأكل النمل لا يرى إلا هذه الحشرة (1) .

وبصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها إلا إذا كانت على شكل نملة . . وإذا اختفى هذا النمل لأي سبب مات هذا الحيوان . . !!

ولأن بعض الحيوانات تخصصت في بعض الطعام ، فإن الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان الثنوذ يستطيع أن يحدث

(1) أنظر الطبعة الأولى من كتاب « من أول نظرة » ص ٥١ وما بعدها . .

أصواتا وضوضاء كما يحلوه وهو آمن تماما . لأن له درعا من اللشوك يحميه من الاعداء .. لكن الحيوانات الأخرى التي ليست لها حماية يجب أن تكون في حالة يقظة مستمرة .. فالإنسان يجب أن يبحث عن طعامه في كل مكان ، وأن يكون البحث واعيا والا مات .

والقرود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالإنسان ، ولكن عندما تكبر القرود ، فإن هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الإنسان الذى يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الإنسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شيء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يبتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن اذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعام أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة في أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شسيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، ونذخرها ونختزنها ونذكرها فيما بعد ..

فالطفل الإنسانى يريد أن يعرف ، يمد يده الى كل شيء ، ويضع أذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة من هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شيء بشراسة : أنهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : أن الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال — أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديها الاندفاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان أيضا : اللعب ، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانساني ، فالصغار عموما يحيون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمونه ويكسرونه ، ويخترمون اشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة على التركيز ولا قدرة على ان ينقلوا الى آباتهم معنى الالعاب أو الحركات التي اكتشفوها . أما الطفل الانساني فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرد الصغيرة والاطفال الصغار : ان القرد كلما كبرت قوت عضلاتها والاطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

وإذا أعطينا القرد الصغير ورقة وقلم ، فإنه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما أحدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، وأحيانا يرسم دوائر ناقصة .. وأحيانا خطوطا مقطعة .. أما الطفل الانساني فيتهدى الى الدوائر والمربعات .

والاطفال والقرد يحبون الخبط والرتع .. أي يحبون أن يلعبوا بالأشياء التي لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب أكثر .. يحبون البعب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانساني عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانساني وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين .. ثم يجعل الزراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف أيضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب ، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذي يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذي صنعه أو اهتدى اليه ، وإنما هو رسم فقط ! .. أنه

كالذى وجد قرشاً على الأرض . وراح يلعب به فقط ولكن لا يعرف ان كان هذا القرش له معنى آخر .. أو يستطيع أن يشتري به أى شيء .. أو بعبارة أخرى : ان القرش لعبة ، أى انه يساوى ثمنه لعباً ، أى أن اللعب لذة مدفوعة الثمن فوراً . فهو فى مرحلة اللعب مجرد اللعب .

وفى عالم الأصوات : لا نجد أن للقرد الصغير أو الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على أن يكتشف شيئاً جديداً ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخرى : أى بقلب الحروف ولخبثتها .. انها مهارة جديدة اكتشفوها فى أنفسهم .. وان كانت القردة لها أصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها أيضاً عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كما أن القردة فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الخوف .. ولكن المتردة لم تستطع أن تجعل الشيء المفرغ عوداً أو ثيثاراً ، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل مرحلتها منظمة .. أو حركاتها مبروسة كالرقص عند الإنسان . أو كالألعاب الرياضية .. فالرياضة هى حركات ذات اتساع ، هذا الاتساع متنوع من لعبة الى لعبة ..

حتى الكتابة هى أيضاً نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضاً .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا الى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل الى جيل ، وأصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولا شيء جديد في عالم الحيوان .

ولكن الجديد في عالم الانسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فاذا أصبح مألوما اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذي نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط في خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث ، ولكن الجديد في أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الإنسانية .. وهو الفارق بين الانسان والقرود ، او بين القرود العريان والقرود .

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجها الى الآباء في أول الأمر ، فالأب يلعب طفله ، والطفل يلعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فان اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. أى يكون للطفل نشاط اجتماعي ، فيكون للطفل ثلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جدا في حياة الطفل وسوف يكون لها اثر خطير في حياته ، فالطفل الذى يحاول أن يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة في محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذى يفشل في ان يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر . واذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو أو كالتناي صعبة في الطفولة ، فان علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب وأبعد .

والطفل الذى أنعزل عن مجتمع الأطفال ، أى الذى ليست له

علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه في وضع سيء وسوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التي أجريت على القرود مثلا : أننا إذا عرفنا قردا من القرود الأخرى .. سنة وراء سنة ثم اتينا له بعد ذلك بقرود مائه يظل عاجزا عن المشاركة معها في اللعب أو اللهو حتى في الجنس .. بل انه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء ان القرود التي تنعزل طويلا اذا وضعت في مجتمع القرود فانها تقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. واهيانا تخفى وجهها بيديها .. كأنها في حالة خوف أو خجل أو عجز من الاشتراك في أى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لها جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث في عالم القرود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فاذا خاف عاد اليها فالأم تحميه بحنانها وترضعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، أما عندما يكبر القرد فإن الأم تطرده بعيدا عنها ، لكي يشترك مع القرود الأخرى في اللعب فاذا عاد اليها فانها تضربه وتقسو عليه .. كأنها تريد أن تقول له : انك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر ، وفي هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته الا في حالة الخطر الشديد أما اذا لم يكن هناك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فانها تطرده وتضربه، وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وأن يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الانسانى تماما ، اذا لم تحسن الأم تربية طفلها في المرحلتين فإن النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الانسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت

له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

وإذا عرف الحنان في الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليه أن يجد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وإنما سيظل كالطفل متملقا بآمه ..

ولا يريد أحدا آخر غير الأم ، فإذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والانسان الذى يخاف من المجتمع يكون أفسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الانسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا ، لأن الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب ان يكون متكررا ، أى لا يأتى بحركات جديدة ، وإنما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجد الكثيرين من الهروبين لهم حركات ثابتة .. يهزون رعوسهم أو أيديهم أو أرجلهم بصورة متكررة أو يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبين قد وجدوا البيئة مخيفة ، معادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى أن يجعلوا سلوكهم مألوما ، مألوما أكثر من اللازم . أى جعلوا أنفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يخاف منهم أحد أو لا يلتفت اليهم .. ومن الممكن أن تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد

على كل شيء هو انفسان (عادى) — اى يجعل العادة تتحكم فيه .
حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف أحدا ، ولا
يخاف من أحد ، وهناك مثل شعبي يقول : آفتى : معرفتى ،
وراحتى : ما أعرقتش — ومعناه انه لا شيء يخيف أكثر من المعرفة ،
ولا شيء يربح أكثر من الجهل ! . .

ولا بد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن
يأتى بالأفعال الرتيبة . . مثل نقات القلب فنقات قلاب الأم تريخ
الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل نقات القلب هو شيء
مريح أيضا . أو هو شيء يجعلنا نخلف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق
بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه . . أو يتحرك فى الغرفة . .
والطالب أثناء الامتحان يضع القلم فى فمه . . أو يلعب بشاربه . .
ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل نقات القلب .

وهذه الحركات . . أو هذه (اللازمة) لها فائدة : نهى تساعدنا
على احتمال الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

وإذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة
متسلطة علينا . . اى اننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك
امتحان . . أو نروح ونجىء فى الغرفة من غير مناسبة . . من غير
أن تكون لنا قدرة ارادية على ضبط هذه الحركات والتوقف
عنها ! . .

وهذه (اللازمة) تولد من الملل . . وإذا ذهبنا الى حديقة
الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى أقفاصها الحديدية . . وهى
منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية . . اى من

الاتصالات بالحيوانات الأخرى ، فهي في حالة انسحاب وانزواء .
كأنها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات
الأخرى .

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أنفسنا
الحيوانات . . أن هذه الأتفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية
الشديدة التي نحيط بها أنفسنا ونسحب وراءها ، وننكمش وننطوى
ونتقوقع ونجتز تجاربنا ولا نضيف إلى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا .
وانما نلرز من أنفسنا نسيج دودة الغز وتنسواري وراءها . . أو
نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها
تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا . . والانسان يفعل ذلك
أيضا في المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية
للمدارس ، ونجد القرد تلعب في أذنيها بأعواد الشجر ، ونجد
الفيل واقفا في مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ،
وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها .
وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون اننشأة غير
السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا في تفص
قرد اعتاد أن ينزل فان هذا القرد لا يحاول أن يتجه إلى هذا
الشيء الذى ألقيناه في تفصه ، ومعنى ذلك أنه لا شيء يثيره أى
لأشياء جديدة يثيره . . وإذا كان الحيوان لا يلتفت إلى الشيء
الجديد ، فلن يعرف شيئا وإذا كان الانسان لا يثيره الشيء الجديد ،
فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك أقرب إلى الحيوان .

وإذا ذهبنا إلى حديقة الحيوانات يجب أن نتذكر المدن الانسانية
التي نعيش فيها ، انها أيضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له

تفص ، هذا التفص من أعواد حديدية ، هذه الأعواد هي المنوعات النفسية والاجتماعية وهي تحصرنا وتمصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : احدهما حب الجديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانسانى قد علمنا أن نتجه الى الجديد ، بخوف .. أو على الأصح باحتراس . واذا كان الانسان قد مات بسبب رغبته في المعرفة . فان الانسان حى لأن بعض الناس مات من أجل أن يعيش غيره ليعرف أكثر وأكثر ..

واذا نحن نظرنا الى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا فى سلسلة واذا وقف القرداتى ونحن أيضا ، وجدنا القرد يأتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك أن القرداتى قد علم القرد أن يأتى بهذه الحركات . أى أن القرد مربوط بسلسلة اخرى هى : العادة على اتيان هذه الحركات ..

مكأن القرد مشدود بسلسلتين واحدة تراها وواحدة اخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة اخرى تشد القرداتى الى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، عالم القرد ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع .. فأى الاثنين هو القرد ؟ أيهما هو المربوط بالأخر .. من المؤكد أن القرد هو المربوط فى الرجل ، ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هي وحدها المحبوسة في أقفاص ، وليس
الانسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القروء .. انها
ايضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدري بها ! ..

فكلما ان هذا الرجل اسمه (قردائى) فهذا القرد اسمه
« انسانائى » !

وكلنا كذلك !! ..



لولا سلامك .. سبق كلامك !

لسببين يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الأرض التي يعيش عليها ، أو حرصا على السلطة التي يتمتع بها في القبيلة أى أنه يدافع عن السلطة أو عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الأرض ولا يهمها السلطة .. وحيوانات تدافع عن مركزها ولا تهتمها الأرض . أما الإنسان فإنه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفي جبالية القروود نجد أن القرد الأتوى هو الذى يسيطر . أما قوته نهى في عضلاته أو في حيويته . فإذا كانت حيويته هى مصدر قوته فإنه يمتلئ كل الإناث وكل الذكور أيضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبالية ا

وكما تطور الإنسان في علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة ، تطور أيضا في ممتلكاته . لكل واحد له شيء يملكه : أرض أو بيت . وقد وصل الإنسان الى هذا الوضع منذ كان الأتوياء من الرجال يسافرون بعيدا للصيد . وكانوا يتركون بيوتهم

وأولادهم . ولذلك كان لا بد أن ينفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عندما يغيب القوى . وإذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى ، فكأنه يحمى الأتوياء — وهم أقلية — من الضعفاء وهم الأغلبية الساحقة ..

وعندما يشعر الحيوان برغبة في العدوان فإن تغيرات هائلة تجرى في داخله . هذه التغيرات هي نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه الى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع في داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهاوى الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الأدرنالين في الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء الى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم ان الكبد تفرز السكر في الدم . وينشط الجهاز التنفسي . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختلى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من أجل البقاء . والدم يندفق الى الأماكن التي تحتاج اليه . والى المخ لكي يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما ان سرعة التجلط معناها ان أى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معناها أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذي يقوم بتبريد هذا الجسم المتهيب . ولذلك

لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التي يصل اليها !

وكلما ارتقت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس في التهديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحنى . وهذه الحركات تبين كيف استعداد الحيوان للمعركة ، وهي في نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان . . وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

وإذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعداد جسمه نشاطه العادى . . فريقه يجرى وبوله أيضا !

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التي يتبول فيها خاصة به . فهو يترك اثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند أحد أعمدة النور ، فهذا هو المعنى . وإذا كانت الكلاب تشعل ذلك بإسراف في المدن ، فلأن في المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وأرضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى : فله ذيل عريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التي تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هي انذار لكل الحيوانات الأخرى . هذه أرض تخص حيوانا آخر . . فاحترس !

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء والفحيح والذئير . . وأحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها أكبر وشكلها مخيفا !

وهناك اشارات للتاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر ان هناك خطرا .

ولذلك فالديك له عرف والاسد له معرفة تجعل الرأس اكبر . وكذلك المرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا اما التغيرات الظاهرة فهي ان عضلات الحيوانات تكون في غاية اتقوة والمرونة فالحيوان يروح ويجيء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس في الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهذا الدوران معناه ان هناك توازنا بين رغبته في العدوان وبين رغبته في الامتناع عن ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى رأسه ويدق الارض بتقديمه !

وأحيانا نرى نوعا من التراجع أو المراجعة . ولذلك يقوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان تسد وضع « غله في شيء آخر » فياكل مثلا أو بهرش في جسمه .. أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كأنه يبني عشا وهميا . وبعض الحيوانات تنام فجأة .. أو تتشاب وتتمدد .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا اكل فهو جائع حتما . اذا هرش فان حشرة تلسعه . ومن الطبيعي أن يجوع الحيوان عندما تنبدد طاقته الهائلة في حالة التعب أو العدوان !

ولكن هذه الحركات التي يأتيها الحيوان ليست الا محاولة

لتخفيف درجة التوتر . أو ليست الا نوعا من الانسحاب . وقد ينتهي الموت هكذا . وينصرف كل حيوان الى مسيله .. ولكن اذا فشلت هذه الحركات فى تهدئة الحيوانات كأن تكون قطعانا كبيرة . وكان يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها وأظفارها وقرونها .. وذيلها يكون كالكرياج .

ولكن من النادر أن يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر أن يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله .. أى أن الأسد لا يقتل الأسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فاذا انتصر الأسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . لما المنهزم لم عليه أن يؤكد أنه انهزم ! وعليه أن يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتقاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحنى رأسه ويغض عينيه ولا يذأر .. وأحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه .. وقد ينقض الحيوان المنتصر فبعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفى بهذا الاستسلام .

وبين القرد نجد الشهبانزى يمد يده كأنه يتسول .. وخصوصا الاناث ، والاثاث تعطى نفسها للذكر . وفى هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينجسم الموتف والذكور الضعفاء تمثل ذلك أيضا !

وهذا هو تانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . واذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف .. وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان . مع نارق أن كل

هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان —
أى . . الانسان .

فوجهه يصفر ويحمر . . من الغضب ومن الخجل . أما شعر
الانسان فلا يقف . . رغم أننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تتحنى الذراع وتجتمع أصابع اليد على شكل
قبضة وهذا استعداد من بعيد . أو تهديد من بعيد . وأحيانا
نضرب المضدة أو الحائط أو نضرب رعوسنا . ولكن ما نزال على
مسافة من الخصم .

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا .
ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه . . والسيدة
التي تكسر الأطباق في حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم
هذه الأنية وإنما هي تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط
ما تفعله القردة فهي في حالة الغضب تحطم الأضراس والثمار
وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان في نيته أن
يضرب بيده يجدها مفرودة . وأصابعه مترخية . وهي عملية
تحويل الغضب الى تهدئة . . وهدوء . وكذلك « الطبطة » على
الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما
يخفص « عرفه » والأسد عندما يخفص شعر رأسه . . وخلع
البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان أقل طولاً ، وأقل
صلابة . . على خلاف ما يحدث عند العدوان أو القتل . وعند
العدوان نبخلق في الخصم . لماذا أغمضنا العين أو نظرنا الى الأرض
كنا بذلك نهديء أنفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد في حاجة الى
الصدر والترقب . ونحن في حديثنا العادى لا ننظر الى الخين

نتحدث اليهم طوال الوقت ، وانما فقط في نهاية كل جملة لنعرف
وقع الكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو
متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر الينا من وراء منظار
يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين
بلا أجنان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. أو مثل
هذه العيون نجد أن العيون مرسومة على أجنحة الحشرات . فإذا
أحست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة
رهيبة تخيف أعداءها !

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن
نستخدم الأفتحة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل
المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام
فى المدن .

بل ان الشركات لم تكف بهذه « العيون المخيفة » وانما جعلت
للسيارات أسماء مخيفة أيضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف اطلاق النار من العينين
وتجىء المقلبات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء -
أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية
قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشففتين - أى الحد الأدنى
من تحقيق رغباتنا الخفية !

ومن الغريب ان الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا
« طفوليا » .. فيحول الرجل الى طفل .. أو يقول كلاما مثل
كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . أى أنه يحول

نزعاته العدوانية الى نزعات استسلامية أو سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة الى أسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل !
والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما « الطبطة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرد أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التلفية » تهدئ أعصابه . وكذلك الطبطة هى نوع من الاقتراب البريء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشعل سيجارة . أو نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا أو ننظر الى الساعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا أو ننظر من النافذة . أو نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظفارنا بأسناننا أو نطقق أصابعنا ..

ونحن قادرون على الكذب بلامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك اناس كذابون محترفون : الممثلون . فهم قادرون على الكذب بالملاحم وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والانسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وأن يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى

تشبيها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . انه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى . . وإذا سألته لماذا ؟ قال لك : انها هكذا اللف وأجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد أن يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به . . ومن الضروري أن نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وأن كان الأسلوب مختلفا فكلاهما — كلانا نحن والكلاب — يريد أن يؤكد انه هنا . . وأن هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر أن يفعل ذلك في مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها أبعد مما نتصور . . مثلا عندما نكسر اشارة المرور . ويدركنا عسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن تتحدث الى عسكرى المرور وأنت فى سيارتك . فى مكانك . فى أرضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجيء العسكرى اليك . . أى الى حدود مملكتك . . وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون أنت وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، أى تركت أرضك . وذهبت الى أرضه . فالوقوف فى يده . وهو سيده . . والنتيجة ضدك عادة !

وقد تطورت وسائل الاقتراب من أرض أعدائنا . . ومن أعدائنا فكان لا بد أن يقترب الإنسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ، فأصبح فى الإمكان قتله عن بعد . . والآن تحولت اسهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لانصيب العدو وانما نقتله . . اما الحيوانات فهى تهزم عدوها فقط . .

فها زير كول مليونين!
مدت العالم البيت.

وراء جيتز فانه
سبع مليون مصاد!

صلمته و قلعنا!
فقدت القويوات!

لهو لاسقط
الكويين مطير!

الكلية لظلمة
لكنيكون حسانا بيدي!

العقد و السلطة!
و القويوات!

من قوت الامت
صوتت حوتيت الكويين

قود في كل مكان!

نظيرة التطوير!
و لفقنا القويوات

كل الجوانب
عوتقنا بالياد في الظلمة!

لديها و غنا الناس و الجوانب
نظيرة!

كل صبر
اصرافك خاصة!

من يعرف لانساة كثيرا
يستم القويوات

فقدت الجوانب
الاربع و مائة و اربعون

قوت كل ارض
نوسا القوي

لودس لظلمة
لظلمة!

فقدت كويين الاضواء
الظلمة الجوانب

فقدت الله بجانة
لنفضت علينا الاقان!

لوتام الازمنة قلدو
لندركه السلطاة!

عندما انزلت حوسون
صوتت النفاض الاقان

شجرة وامرنا تغني
فخرجنا وانك تعرفنا